الفصل الاول

التوحيد والتزكية والعمران

كنت قد وعدت قراء مجلة (قضايا اسلامية معاصرة) لصاحبها الصديق العزيز الشيخ عبدالجبار الرفاعي بمواصلة الكتابة في موضوع (المقاصد القرآنية العليا الحاكمة)؛ ولقد شجعني الأستاذ الشيخ عبد الجبار والقراء الكرام على مواصلة البحث في هذا الموضوع الخطير، بعد التجاوب الهائل الذي استقبلت به الحلقتان السابقتان: الأولى والثانية. خاصة من رجال الحوزة الكرام في قم المشرفة. ولا أخفي أنني حين بدأت الكتابة في الموضوع كنت أقدم رجلا وأؤخرها لإدراكي خطورة ما أنا مقدم عليه، ولآثاره الخطيرة، لا على الدراسات المقاصدية وحدها، بل على الدراسات الشرعية عامة؛ وفي مقدمتها الدراسات الأصولية والفقهية. فالمسألة ليست مسألة (ما الذي ينبغي أن يكون محور التركيز الأول في هذه الدراسات: الفعل الإنساني الذي هو موضع تعلق الحكم الشرعي، أو النص الشرعي كما هو الحال عند المتقدمين، ولا يزال كذلك) بل المهم إدراك الآثار التي تترتب على اختيار أي منهما، ومنذ تأسيس الفقه جرى تبني الاتجاه القائل بمحورية النص، وعلى هذا التصور قام بناء فقهنا الموروث، ونحن الآن نحاول أن نعيد الأمر إلى نصابه وموقعه القرآني فيكون (الفعل الإنساني) محورا من حيث تعلق الحكم الشرعي به، والنص مصدرا لتقويم ذلك الفعل وتحديد صفته، ولقد فهم بعض القراء الأمر بتلك الكيفية المشار إليها سابقا، وظنوا أن التغيير الذي قد تؤدي هذه المنظومة إليه تغيير شكلي، أو أن الخلاف بين الطريقتين خلاف لفظي ـــــ كما يقولون ـــــ ولكن ما إلى ذلك قصدنا. كما فهم البعض أننا قد رمينا إلى التجديد في كتابة (مقاصد الشريعة) بحيث يبدو الانسجام واضحا بين مقاصد الشارع والشريعة ومقاصد وحاجات المشترع (المكلف)، وهذا ـــــ أيضا ـــــ أمر لــه أهميته ووجاهته لكنني ما إليه رميت بالدرجة الأولى.

لقد كان الهدف الأساسي الذي أردنا الوصول إليه يتلخص فيما يلي:

١ ـــــ أن نعيد إلى القرآن المجيد الحاكمية والتشريع إنشاء وابتداء وكشفا **{إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون}** (يوسف : ٤٠) وذلك بعد أن زاحمته الأدلة الأخرى الأصولية: النقلية والعقلية حتى كادت تحوله إلى مجرد شواهد يستشهد بها لتعزيز ما يتوصل إليه عبر تلك الأدلة من أحكام[١] أو من خلال الرأي المجرد.

---

(١) راجع إن شئت الكتاب القيم (استدلال الأصوليين بالكتاب والسنة على القواعد الأصولية) للدكتور عياضة بن نامي

٢ ـــــــ رد الاعتبار إلى الكليات القرآنية والكليات الشرعية ــــــ بوجه عام ـــــــ بعد أن كاد الانشغال بالدليل الجزئي ودقائقه يطمس الأهمية البالغة لتلك الكليات ويعطل تشغيلها[١].

٣ ـــــــ تجاوز الشكلية القانونية التي اتسم الفقه بها منذ أن قبل الفقهاء مبدأ الفصل بين (الفقه الأكبر) و(الفقه الأصغر والاصطلاحي) وانفصل الفقه عن (الرؤية الكلية الإسلامية)[٢].

٤ ـــــــ تيسير سبل الممارسات الاجتهادية، وتسهيل عملية الاستنباط مستفيدين من الخاصية المعروفة للقرآن المجيد، وهي تيسير الله تبارك وتعالى سبل تدبر هذا القرآن، والتفكر فيه وتعقله وتذكره وتذكر سائر العناصر الأساسية لتراث النبوات السابقة، الذي صدق القرآن عليه وهيمن، ثم استوعبه وتجاوزه.

٥ ـــــــ تيسير عملية التجديد، بل والتجدد الذاتي في الفقه الإسلامي، وربط ذلك بفلسفتي الزمان والمكان من ناحية، وبالقراءة الدائمة المستمرة للقرآن المجيد للاستفادة من خاصيته الأخرى، وهي انفتاح نصوصه باستمرار على الواقع لاستيعاب تحولاته وتغيراته وما يستجد فيه؛ وهذه الخاصية ليس في إمكان الفقه الحصول على شيء من مزاياها إلا إذا قام على القرآن المجيد ذي النص المطلق.

٦ ـــــــ التخلص من مشكلة تجاهل الواقع، أو التقليل من شأنه، أو العجز عن استيعابه بكل تفاصيله وذلك بالأخذ بمبدإ القرآن في (الجمع بين القراءتين) باعتبار الجمع بينهما محددا منهاجيا لا يتعطل عن العمل ولا يتوقف، ولا يقصر عن الإحاطة بجوانب الواقع مهما بلغت تعقيداته.

٧ ـــــــ إن إبراز هذه المقاصد القرآنية الحاكمة سوف يؤدي إلى إدراك (الوحدة البنائية للقرآن المجيد) [٣] ويقضي على تلك التصورات التي كانت سائدة في عصر التدوين من احتمال

السلمي، ط١، الرياض، ١٤١٨هـ.

(١) فإن محل الحكم أو المحكوم فيه إذا شغل بما دل الدليل الجزئي عليه، فلن يكون هناك مجال للانشغال بمقتضى الدليل الكلي إذ لا تظهر لذلك حاجة. والذهن الإنساني إذا انشغل بما استقر فيه أولا فلن يكون هناك مجال لأن ينشغل بوارد إليه بعد ذلك إلا باعتباره طارئا على الأول، لأنه يأخذ من الاهتمام درجة أقل.

(٢) راجع ما قاله الإمام الغزالي (ص:١٣٧ ـــــ ١٤٢) حول الشكلية في إحياء علوم الدين، (الباب الرابع في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف) وانظر كتابنا (أدب الاختلاف في الإسلام) طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٢.

(٣) نعني (بالوحدة البنائية للقرآن المجيد) أن القرآن، وإن تعددت آياته وسوره وأحزابه ^ ˘ وأجزاؤه فإنه في ترابطه،

وجود التعارض الملجئ إلى الترجيح، أو القول بالنسخ، أو القول بتناهي النصوص وعدم تناهي الوقائع، ونحو ذلك من أقوال غير دقيقة ولهذه خطورتها على إطلاقية النص القرآني .

التوحيد

التوحيد ـــــ هو قمة الهرم في هذه المنظومة القرآنية، عنه تتفرع سائرها، وعليه يقوم بناؤها. والتوحيد الذي يأخذ هذا الموقع من هذه المنظومة ـــــ هو ذلك الذي جاء القرآن المجيد به نقيا خالصا سليما من سائر الشوائب، فلو شابته أية شائبة أو خالطته الأخلاط فقد نقاءه، وبطلت فاعليته، أو ضعفت آثاره وانطفأت جذوته، وتوقفت تجلياته.

والتوحيد: مصدر، فعله الماضي (وحد) ووحد الشيء: جعله واحدا، سواء أكان قبل ذلك مما شأنه التعدد أم لم يكن، وسواء أكان من قبيل المتعدد حقيقة أو اعتبارا [1].

ولما كان الإقرار بوحدانية الله وأحديته في ذاته وصفاته وأفعاله وألوهيته وربوبيته حصر لذلك ـــــ كله ـــــ فيه وقصر لــه عليه تبارك وتعالى، قيل لذلك: (توحيد الله تعالى)، والتوحيد أساس الدين كله فما من تكليف عقدي أو شرعي إلا انبثق عنه واستند إليه، وقد حكى القرآن المجيد عن المشركين استغرابهم التوحيد وقولهم **{أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب}** (ص:٥).

فهؤلاء لإشراكهم اعتبروا الأصل في الإلهيّة التعدد، والتوحيد بدعة فاستغربوا دعوة الرسل والأنبياء إليهم لممارسته والتحقق به **{ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق}** (ص:٧)، فخرجوا عن الفطرة حين تجاهلوا أن الأصل ـــــ هو: وحدانية الخالق تبارك وتعالى: فهو واحد في ذاته وفي صفاته وأفعاله، لا شريك لــه في شيء من ذلك، ولا نظير، ولا مماثل، ولا مداني.

وإحكام نظمه، وتناسب كلماته وآياته وسوره، بمثابة الجملة الواحدة. كما نص على ذلك أبو علي الفارسي، ونقله عنه صاحب مغني اللبيب وشارحه في كلامهم عن (لا) النافية للجنس، وأكد ذلك الرازي في التفسير وصاحب الفتوحات المكية، وقد أعدت إحدى طالباتنا رسالة في الموضوع بإشرافنا لم تطبع بعد. كما كتب في ذلك الأخ الصديق الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد في دراساته القرآنية العديدة ومنها (منهجية القرآن المعرفية) والتي طبعها المعهد طبعة محدودة، وراجع أيضا (النص القرآني من الجملة إلى العالم) للدكتور وليد منير، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٧.

(١) راج المفردات للراغب الأصبهاني، مادة (وحد).

ومن هنا فإن (التوحيد) الذي نريده في مجال الإيمان إنما هو (الحكم اليقيني بوحدانيته تعالى والعلم اليقيني والإدراك الجازم لتلك الوحدانية، ونفي الشريك والشبيه والند والضد والمساوي والوسيط، وتجريد ذلك اليقين بالوحدانية عما يتصور أو يتوارد في الأفهام أو يتخيل في الأوهام، أو يرد على الأذهان من خواطر منافية، ونسبة سائر صفات الكمال التي تقتضيها الإلهيّة وتستلزمها الأسماء والصفات، ووصف الله ـــــ تعالى ـــــ بها ذاته العلية ونسبتها إليه دون تشبيه أو تعطيل أو تأويل أو تكييف أو تمثيل يخرجها عن سياقها.

فالتوحيد: هو الإقرار والاعتراف النابع من يقين بأحدية الله تبارك وتعالى ووحدانيته وتفرده سبحانه في كل ما هو مختص به من الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، والإقرار بانتفاء أضدادها ومنافياتها عنه جل شأنه.

وقد أودع الله تبارك وتعالى في الإنسان القدرة على الفهم والإدراك، فالذاكرة أو الحافظة الإنسانية، وطاقة التخيل، والقدرة على النظر والتفكر، والملاحظة والحدس والاستيعاب وغيرها كلها طاقات أودعها الله تعالى في الإنسان لتمكنه من الفهم والإدراك. لكن استيعابه للتوحيد وفهمه لـــه أرسيت دعائمه، وأقيمت قواعده في فطرة الإنسان، كما أقيمت أسسه في طبيعته، وأوجد الله تبارك وتعالى ـــــ في الفطرة الإنسانية والطبيعة الآدمية البشرية نزوعا لا يتوقف إلى إدراك التوحيد وفهمه ثم الإيمان به واليقين فيه. ويظل القلب قلقا، والنفس الإنسانية مضطربة حتى تبلغ شاطئ (التوحيد) فتهدأ أو تهنأ {**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**}(الرعد:٢٨).

وتوحيد الله تعالى واليقين بتفرده بالربوبية والإلهيّة والأسماء والصفات، وتنـــزيهه عن الأنداد والشركاء أهم ما يتميز الإسلام به عن سواه، وقد حرص القرآن الكريم على توضيح كل معالم التوحيد صغيرها وكبيرها ليتمكن المؤمنون من التحصن ضد سائر أنواع الشرك كبيرها وصغيرها، ظاهرها وخفيها. وقد بين تبارك وتعالى ـــــ أنه قد يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك أيا كان نوعه {**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا**} (النساء:١١٦)، وذلك لما للشرك من آثار خطيرة على سائر جوانب الحياة. سنقدم فيما يأتي بعض ما ينبه إليها.

أقسام التوحيد[١]:

من هنا انقسم (التوحيد) إلى أقسام ثلاثة هي: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

فتوحيد الألوهية حصر كل ما يشتمل عليه مفهوم العبادة من ضروب التوجه والتوسل والتعبد والاستعانة والدعاء والتبتل في الله سبحانه، فلا أحد سواه يستحق أن يعبد أو يخاف ويرتجى فيتوجه إليه بأي نوع من أنواع الدعاء أو التوسل أو التعبد.

وقد يطلق على هذا النوع من التوحيد أيضا توحيد العبادة قال تعالى { **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** }(الإسراء:٢٣) وقال تعالى {**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا** }(النساء: ٣٦).

وأما (**توحيد الربوبية**) فهو شامل للإقرار بوحدانية الله تعالى في الخلق والملك والتدبير، فهو سبحانه متفرد بالخلق: {**ألا لــه الخلق والأمر**} (الأعراف:٥٤) وقال جل شأنه {**يأأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض**} (فاطر:٣).

وأما تفرده سبحانه في الملك ففيه قولــه تعالى {**ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير**}(آل عمران:١٨٩) وأما التدبير فهو تصريف الأمور بحكمة، مع إدراك لعواقبها، وعلم بما ينجم عنها، وهو تبارك وتعالى متفرد بالتدبير {**يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون** } (يونس:٣).

وأما توحيد الأسماء والصفات فيشتمل على الإقرار بتفرده جل وعلا في سائر أسمائه وصفاته، وإثبات كل ما أثبته سبحانه لنفسه، ونفي كل ما نفاه عن ذاته العلية، واليقين بعدم مماثلة أحد لــه في شيء من ذلك كله، أو مشاركته فيه، وتجنب الانغماس في التأويل والتعطيل والتشبيه والتكييف والتمثيل [٢].

---

(١) التوحيد بشرح الشيخ محمد بن الصالح العثيمين، والتوحيد للفاروقي، والفصل الخاص بجوهر الحضارة الإسلامية في أطلس الحضارة والثقافة، والرؤية التوحيدية للعالم الشيخ مرتضى مطهري، وفلسفتنا للشهيد محمد باقر الصدر، وموجز في أصول الدين للشهيد محمد باقر الصدر، تحقيق ودراسة عبد الجبار الرفاعي، ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، وكتاب الإيمان للشيخ حسن الترابي.

(٢) راجع عقائد السلف، تحقيق د. علي سامي النشار.

التوحيد جوهر الرسالات كلها:

وهذا التوحيد هو جوهر رسالات الرسل والأنبياء كافة **{ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}** (النحل:٣٦) وهو غاية الحق من الخلق **{وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}**(الذاريات:٥٦) أي ليوحدوني في ألوهيتي وربوبيتي وأسمائي وصفاتي، وما يستلزم ذلك من طاعة في المأمور به، واجتناب للمنهي عنه، والوقوف عند حدوده، والقيام بمتطلبات العهد الإلهي، وائتمان البشر وابتلائهم واستخلافهم في الأرض، وتحقيق غايات الحق من الخلق جل وعلا وتبارك وتقدس في ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

فالتوحيد حجر الزاوية في رسالات الرسل كافة وتعاليم الأنبياء أجمعين، وما كان التوحيد بهذه المكانة، ولا حظي بكل ذلك الاهتمام إلا لأن كل ما عداه متوقف عليه لا يتحقق ولا يستقيم إلا به: فعلى سلامة التوحيد تتوقف أركان الإيمان كلها. وعلى طهارته من سائر أنواع الشرك تتوقف دعائم الإحسان جميعها، ولا تقوم الرؤية الكلية الهادية إلا عليه. إنه وسيلة الإشعاع والإنارة لكل ما سواه. فلا يستقيم التصور الإنساني لمن خدش الشرك عقيدة التوحيد فيه.

ولا يستنير الفكر إذا لم تنعكس أشعة التوحيد عليه، ولا يهتدي السلوك الإنساني إلا به، ولا يرتقي إلى معارج التزكية إلا بسلالمه، ولا يبلغ العمران إلا بسلوك سبيله، ولا تتحقق عدالة إلا بعد اليقين به، ولا تقوم دعائم حرية أو تحرر أو مساواة إلا على قوائمه.

بعض آثار التوحيد:

إن التوحيد إذا خالطت بشاشته القلب، واستيقنه الضمير، واستنار به العقل، واستضاء به الوجدان، انعكس على سائر جوانب الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية. إن التوحيد يمثل آنذاك منطلق العلاج الشافي لكل أمراض ومشكلات وأزمات الحياة والأحياء، بل والأشياء. إنه آنذاك ينعكس على الفكر فيقيمه، وعلى التصور فينقيه، وعلى الاعتقاد فيصححه ويطهره، وعلى الوجدان فيحرره، وعلى السلوك فيعدله، وعلى الخلق فيحسنه، وعلى الحياة فيجعلها حياة طيبة، وعلى نظم الحياة فيجعلها صالحة قائمة على الهدى والحق والعدل والأمانة، وتساوي الخليقة ووحدتها، ووحدة الحقيقة ومناهجها.

والتوحيد إن عجز عن تحقيق ذلك كله أو شيء منه فإنه يحتاج إلى مراجعة شاملة؛ لوجود تلازم

بينه وبين آثاره، إذ إن عدم ظهور آثاره يشير إلى أن هناك خللا في التحقق بحقيقته، أو أن هناك شوائب قد شابته فحالت دون انعكاسه على ما ذكرنا **{وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}**(يوسف:١٠٦) و **{الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}** (الأنعام:٨٢)

و **{فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا}**(الكهف: ١١٠).

إن التوحيد معبرا عنه بشهادة ألا إله إلا الله هو الذي أخرج للناس الأمة الوسط المثالية والقطب التي كانت خير أمة أخرجت للناس، والتوحيد هو الذي جعل من الأمة في بداية تكوينها تلك الأمة الرسالية التي انطلقت باعتبارها أمة مبتعثة، شاهدة على الناس، تخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن الظلمات بكل أنواعها إلى النور بكل ضيائه.

إن التوحيد يحرر الإنسان من عبادة الأشياء والأحياء، ومن عبادة ذاته، ومن عبادة الإنسان للإنسان كذلك، ويحصر عبودية الإنسان بالله وحده، و يقيم نظام الحياة الإنسانية الواقعية على قاعدة يرضاها الله تعالى، وتنسجم مع الموازين والمقومات التي لا بد من الرجوع الدائم إليها، وملاحظتها في كل ما يأخذ الإنسان ويدع لضمان استقامته على الطريقة.

إن التوحيد هنا ليس علما ندرسه سواء سميناه توحيدا أو عقائد أو علم كلام أو أصول الدين أو ثيولوجي أو فلسفة أو أية تسمية أخرى إن وجدت، بل هو (عقيدة وإيمان) كامل متى خالطت بشاشته القلب حركت حامله لتغيير واقع البشرية وإعادة صياغته وفقا لتجليات التوحيد. وهذه المنظومة المقاصدية القرآنية والتوحيد في مقدمتها ليست منظومة تستهدف تغيير معتقدات الناس الكامنة في قلوبهم ولا تصوراتهم ومفاهيمهم وحدها، ولا لكي يفتي المستفتون بمقتضاها في قضاياهم الجزئية، بل لإنشاء حياة أفضل وواقع أطهر.

إن من المحال أن يتزكى الإنسان تزكية تامة بدون التوحيد. كما أن من المحال أن تعمر الأرض بدون (التوحيد) كذلك؛ لأن البديل عن التوحيد هو الشرك بأن يتخذ البشر شركاء لله منهم في صورة من الصور ليس بالضرورة أن تكون من بينها الصلاة لهم، وقد يشركون بالله أهواءهم وشهواتهم، وقد يتخذونها آلهة من دون الله.

إن التوحيد مقصد أعلى لا يتحقق في ضمير الإنسان ووجدانه بيقين إذا لم ينعكس على كل

جزئية من جزئيات المعرفة، وعلى كل جانب من جوانب التصور والفكر والحركة، وعلى مفردات الواقع في الاقتصاد والثقافة والاجتماع والسياسة والخلق والسلوك والآداب والفنون، وسائر جوانب الحياة الأخرى.

إن قولـــه تعالى **{وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}**(يوسف:١٠٦) يمثل جانبا من جوانب الإعجاز القرآني، إذ إن هذه الآية كأنها قراءة لمستقبل ربما تكون هذه السنين العجاف جزءا منه حيث نرى أعدادا هائلة من المؤمنين: فيهم المنتسبون إلى الإيمان انتسابا فقط. وفيهم من يؤمنون بالله تعالى ويشركون به سواء بوعي أو بدون وعي. فالتوحيد يعني فيما يعنيه أن الكون كله بمن فيه وبما فيه لـــه خالق واحد ما خلق الكون كله ومن فيه وما فيه إلا تحقيقا لمشيئته، وتنفيذا لإرادته. وأنه قد خلقه الخالق وأسسه على الخير والحق والتراحم والتواصل وإقامة العدل {ليقوم الناس بالقسط} (الحديد:٢٥) وليبلغ الإنسان المؤتمن المستخلف بالموجودات التي أؤتمن عليها إلى كمالها المطلوب فينتظم كل شيء في الوجود في عبادة واجب الوجود.

والتوحيد يلزم الموحدين أن يوقنوا بأن مرجع الوجود كله إنما هو واجب الوجود ـــــــ جل شأنه **{إليه أدعو وإليه مآب}** (الرعد:٣٦) **{إليه مرجعكم جميعا}** (يونس:٤) **{إنا لله وإنا إليه راجعون}** (البقرة:١٥٦). فالوجود كله يتآلف منه سبحانه وتعالى باعتباره الموجد لكل ما سواه، المتعالي عن كل من عداه فهو واجب الوجود [١]، وكل ما عداه بإيجاده لـــه موجود.

ولذلك لم يكن شيء في هذا الوجود مخلوقا عبثا، أو سائرا إلى غير غاية، أو متروكا سدى، أو متحركا نحو لا هدف، بل كل شيء فيه محكوم بسنن، ومتحرك بقوانين، ودائر حول مركز، لذلك فإن التوحيد يضفي على كل شيء في الحياة معنى، ويمنحه روحا، ويضع لـــه هدفا، ويجعله دائرا حول مركز، فلا مجال للعبث والعبثية، ولا سبيل لبروز أفكار العدم والعدمية [٢] بين قوم يحتل التوحيد موقعه المناسب في قلوبهم.

---

(١) واجب الوجود: تعبير فلسفي يطلقه الفلاسفة على الحي القيوم، وهو الأزلي الموجود بداية، ولا يتعلق وجوده بغيره على الإطلاق. ووجوده ضروري لكل ما عداه، إذ كل ما عداه موجود بإيجاده لـــه سبحانه. انظر الإشارات والتنبيهات لابن سينا بشرح الطوسي، تحقيق: سليمان دنيا، ص ١٩، طبعة دار المعارف بمصر.

(٢) راجع (الحقيقة في نظر الغزالي)، سليمان دنيا،ط٥، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٤.

وحين نعالج موضوع (التوحيد) باعتباره قمة هرم المقاصد القرآنية العليا الحاكمة تستوقفنا ظواهر عديدة تقف في مقدمتها ظاهرة اتخاذ القرآن المكي عبر الأعوام الثلاثة عشر التي تمثل وقته كله التوحيد محوره الأساس وقضيته الأولى، وما ذلك إلا لأن التوحيد في هذا الدين جوهر طبيعته، وأس بنائه، وقوام منهجه في بناء كيانه وفي امتداده وانتشاره. وآثار هذه الظاهرة في صنع الجيل الأول السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ومنهم آل بيت النبي الأطهار صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة بارزة؛ فقد كان ذلك الجيل جيلا مميزا لا في تاريخ الإسلام وحده بل في تاريخ البشرية كلها، فما أخرجت البشرية قبله و لم تخرج بعده هذا النمط مرة أخرى بقطع النظر عن كل ما حدث بعد ذلك. لقد عرف في تاريخ المؤمنين بالرسل أفراد متميزون في مراحل مختلفة، بل عرفت الأمم أفرادا من هذا النوع في مختلف عصورها، ولكن لم تحتفظ ذاكرة التاريخ البشري بوجود جيل ذي عدد ضخم في مكان وزمان محدود أخرجته دعوة من الدعوات السماوية أو الأرضية كذلك الجيل الذي أرسى القرآن المجيد دعائم التوحيد في ضميره ووجدانه، وعقله، وكيانه، وحياته، ومجتمعه، عبر العهد المكي كله حيث كان محور القرآن المجيد النازل في تلك الفترة الأول والأخير إنما هو التوحيد فقط لا غير.

إن الرعيل الأول قد استقى التوحيد خالصا سائغا من النبع القرآني الصافي وحده، وتعلم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف يتعاهد التوحيد في كل حين وفي كل موقف لئلا تشوبه الشوائب، أو تكدر نقاءه المكدرات، فكان لذلك الرعيل في التاريخ ذلك الشأن الفريد، فهو جيل رباني ما شابت إيمانه شائبة، ولا وجدت نواقض التوحيد إلى قلوب بنيه سبيلا، فما الذي حدث بعد ذلك؟ كدرت النبع الدلاء المشوبة، بل اختلط بالنبع غيره، وفتحت على النبع النقي الأصيل ينابيع ومصادر مختلطة فصبت به فلسفة الإغريق ومنطقهم، وأساطير الرومان وتحريفاتهم، وحواديث الفرس وعبدة النيران وترهاتهم، وإسرائيليات الشعب الطاغية المغرور من بني يهود، ولاهوت النصارى المعقد، وغير ذلك من رواسب الحضارات وفضالات الثقافات [1] واختلط ذلك كله بتفسير القرآن المجيد، فدمر منهج فهمنا لـــه، وتعاملنا معه. وتسلل إلى علم العقيدة أو الكلام ليصادر أنوار التوحيد ويطفئ إشعاعات العقيدة، ويسلب الإيمان فاعليته. كما اختلط في أصول

---

(١) راجع: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٣.

الفقه والفقه، وعلوم العربية فشاب بذلك سائر المكونات العقيدية والفكرية والمعرفية والثقافية فتخرجت سائر الأجيال التالية من المسلمين على ذلك الماء الكدر الصادر عن النبع المشوب المختلط: فلم يتكرر الرعيل الأول، وأنى لــه ذلك بعد كل ما حدث؟!

لقد بذل عليه الصلاة والسلام من الجهد غايته ليحمل الرعيل الأول على الارتباط بالنبع الصافي الوحيد ـــــ القرآن المجيد وحده ـــــ فلا تشوب إيمانهم شائبة، ولا يخدش توحيدهم شيء، فتخبت لله وحده قلوبهم، وتخلص لــه أنفسهم، وتستقيم على منهجه عقولهم، ولذلك غضب عليه الصلاة والسلام حين رأى بيد عمر ورقة من التوراة، وقال لــه ـــــ بحدة ـــــ ما كانت تلاحظ عليه إلا إذا تعرضت حرمات الله جل وعلا إلى خطر: (أكتاب مع كتاب الله وأنا بين أظهركم، والله لو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباعي) [1] بل نهاهم عن كتابة سنته وهي بيان القرآن وتطبيقاته، الدائرة معه حيث دار [2]؛ كل ذلك كي يستقر التوحيد في قلوب ذلك الجيل وفقا لهدى القرآن، فيتكون جيل خالص القلب، نقي الوجدان، طاهر العقل، زكي النفس، صافي التصور، نظيف الشعور، قرآني التوحيد، بريء التكوين من أي مؤثر خارج عن المنهج القرآني الذي بمقتضاه صيغ التوحيد في كافة الرسالات، وعلى هديه أسست عقيدة المرسلين. نعم، لا بد من إعادة قراءة القرآن كله وخاصة القرآن المكي في مجال التوحيد، لتنقية إيماننا، وتصفية توحيدنا من كل مؤثرات الجاهلية القديمة والحديثة، لابد من إعادة البناء، وإعادة التكوين بمقتضى الكتاب الذي لم يختلط و لم تشبه الشوائب و لم تكدره الدلاء، لابد أن نستمد منه التوحيد الخالص، وبذلك التوحيد الخالص نفهم حقيقة الوجود ومقومات الشهود، وحقيقة العهد، ومهمة الاستخلاف، وطبيعة الائتمان، وكيفية اجتياز اختبار الابتلاء. ثم نشهد العلاقة بين الوجودين: وجود واجب الوجود، ووجود الفاني الجائز الوجود. عند ذلك سيمدنا التوحيد بالتصور الإسلامي السليم بكل خصائصه الكبرى، ومقوماته الهادية، وسنتعلم من ذلك التوحيد كيف ينبغي أن نفكر، وما المنهج الذي يجب أن نكتشف ونتبنى، وما النظم التي ينبغي أن نرسي دعائمها، وما التي ينبغي لنا أن نقوضها ونـــزيلها من الوجود.

---

(١) الحديث رقم ٣٧٦٦ في عون المعبود شرح سنن أبي داود.

(٢) يضاف ما يتعلق بالنهي عن التدوين.

لقد تم تحديد العلاقة بين الله ـــــــ تعالى ـــــــ والإنسان أولا (بالعهد) **{وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون}** (الأعراف:١٧٣،١٧٢) ثم بالائتمان فعند الله أمانة اقتضت حكمته أن يأتمن عليها من خلقه من يقبلها بعد عرضها **{إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا}** (الأحزاب:٧٢).

وعلى أساس من ذلك تم الاستخلاف **{وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون}** (البقرة:٣٠ ـــــــ ٣٣) وبعد الاستخلاف جاء دور تحديد المهمة التي لتحقيقها وقع الاستخلاف، وعلى ذلك يتوقف الحساب والجزاء فكان التكليف والابتلاء **{ليبلوكم أيكم أحسن عملا}**(الملك:٢) في ضوء المقاصد الكلية الحاكمة.

لقد أقام الله ـــــــ تعالى ـــــــ الابتلاء والتكليف على منطلق ودعامتين: فالمنطلق ـــــــ هو التوحيد الخالص، والدعامتان ـــــــ هما: التزكية أولا: إذ بها يتمكن من الوفاء بالعهد، والقيام بحق الأمانة، وأداء مهام الاستخلاف واجتياز اختبار الابتلاء. ثم العمران ثانيا: لأن العمران حق الأرض التي كانت الملائكة تخشى عليها من خلافة من يفسد فيها ويسفك الدماء فيعمها الخراب بدل العمران، ومن هنا كانت المقاصد القرآنية العليا الحاكمة هي : التوحيد ـــــــ التزكية ـــــــ العمران.

الشهادتان:

إن التوحيد يعبر عنه بشهادتي **لا إله إلا الله، محمد رسول الله**، الخفيفتان على اللسان، الثقيلتان في الميزان؛ ليكون الإنسان على ذكر دائم ومستمر للتوحيد بتكرار هذا الإقرار المعلن الملخص لكل ما تقدم من مقومات التوحيد ومتطلباته وأركانه، فآيات الكتاب الكريم قد فصلت فصلا تاما بين

الألوهية والعبودية، فهما مقامان مختلفان، لا تماثل بينهما، ولا تداخل، ولا حلول، ولا اتحاد، ولا خصائص مشتركة، ولا صفات متداخلة: فالله تبارك وتعالى أقرب لعباده من حبل الوريد وهو معهم أينما يكونوا، ولكنها معية حضور وشهود، وعلم وقرب وقدرة ولطف وتوفيق، أو خذلان وتخل دون أن يحيط به سبحانه حيز الوجود أو زمان المخلوق، فزمان المخلوق ومكانه وحيزه وعنوانه كل أولئك بعض خلقه، وجزء من ملكه **[وكلم الله موسى تكليما]** **[واتخذ الله إبراهيم خليلا]** وجعل عيسى مثل آدم وعده روحا منه ورفع محمدا إلى سدرة المنتهى، كل ذلك لم يكن في إطار انحيازه المادي للمخلوق أو اقترابه الحسي من زمانه ومكانه، بل كل ذلك جزء من تجليات ألوهيته وربوبيته في عالم أمره الذي لا يحيط به غيره، ولا يعلم كنهه وحقيقته سواه سبحانه جل شأنه وتقدست أسماؤه وتبارك وتعالى في صفاته وذاته. وذلك هو التصور الإسلامي السليم للألوهية المنـــزهة المتعالية المباركة.

التوحيد والتصور الإسلامي:

إنه ما من حضارة أو مدنية أو حالة عمرانية يمكن أن تقوم بدون تصور، فالتصور هو أساس تقوم عليه نظرة كلية للكون والإنسان والحياة، فعلى التصور تبنى أركان وتفاصيل ودقائق الرؤية الكلية؛ فإذا كان المنهج أي منهج يقوم على مسلمات تسبقه يسميها البعض مسلمات ما قبل المنهج، فان التصور بهذه المثابة للرؤية الكلية هو منطلقها وقاعدتها، والتصور والرؤية التي تقوم عليه يمثلان ما كان يعرف عند الحكماء المتقدمين بالحكمة النظرية، حيث قسم أولئك الحكماء الحكمة إلى نظرية تعني فهم الكون كما هو كائن، وإلى عملية تعني فهم السلوك الحياتي كما ينبغي أن يكون(١).

إن الأديان كلها والمذاهب جميعها وسائر التيارات الفلسفية والاجتماعية ترسم أول ما ترسم تصورها، وتحيطه بالخصائص والمقومات اللازمة لـــه، ثم تبني عليه رؤيتها الكلية وتحدد أهدافها، والمناهج والسبل المؤدية إلى تلك الأهداف، ثم تحدد العلاقات الفردية والاجتماعية في ضوء ذلك

---

(١) مطهري، الرؤية التوحيدية للعالم، ص ٥. ومن الذين استعملوا (مسلمات ما قبل المنهج) المرحوم محمود محمد شاكر في كتابه (في الطريق إلى ثقافتنا) طبعة دار الهلال.

وعلى مختلف مستوياتها، والتصورات تختلف باختلاف منطلقاتها وتقصر أو تكتمل بحسب تلك المنطلقات سواء أكانت علمية أو معرفية أو فلسفية أو مادية أو دينية، بيد أن الله تبارك وتعالى خص التصور الإسلامي بمجموعة من الخصائص والمقومات لم يحظ بها أي تصور آخر، بل لم تحظ بها مجموعة التصورات، فالتصور الإسلامي وإن بدا في بدايته وظاهره تصورا دينيا غير أنه جمع في خصائصه ومقوماته مزايا أهم التصورات التي عرفتها البشرية؛ فالنظر العقلي أول واجب يواجه الإنسان بمسئولية القيام به ليصل إلى المعرفة، ولكن مع قائد هاد رشيد يساعده على معرفة نفسه، وإدراك مخلوقيته وعبوديته، ومعرفة خالقه وإلهه، ومعرفة البيت الذي يسكن فيه العالم أو الأرض وهذا بحد ذاته يوفر على الإنسان مشوارا طويلا من البحث، ويحل لــه ابتداء مجموعة من العقد التي يحار الفلاسفة بها ويتيهون في دروبها، ويبني لــه القاعدة المتينة الأمينة التي ينطلق منها لبناء بقية مقومات ذلك التصور ودعائمه بكلية وشمولية ودقة لا يمكن لنواة أي تصور آخر أن تحققها أو تقود إليها؛ لأن السؤال الذي يطرح نفسه على العقل الإنساني في قضية الوجود هو هل هناك حقيقة مستقلة لم تنشأ عن مصدر آخر؟ بل كل الحقائق الأخرى ناشئة عنها فهي في ذاتها وصفاتها وأفعالها ناشئة عن تلك الحقيقة، راجعة إليها فهي مستندة لتلك الحقيقة الأزلية سواء أكانت تلك الموجودات كبيرة أو صغيرة ذات أثر ظاهر أو خفي، واحد أو متعدد خارق للعادات أو موافق لها في نطاق عالم الطبيعة أو خارجها، فكل ما عداه منه مستمد وإليه راجع **{إنا لله وإنا إليه راجعون}** (البقرة:١٥٦).

لقد وضع الحكماء معايير للتصور السليم، ونحن لا نرى ضرورة معايرة التصور الإسلامي لهذه المعايير، فالتصور الإسلامي معياره الأساس من داخله فهو تصور توحيدي نقي أرسى الله تبارك وتعالى دعائمه، وفصل على علم خصائصه، فهو رباني المنشأ لم يخالطه الهوى، تستمد حقائقه من الحقيقة الإلهية الأزلية صدقها، وثباتها وعلميتها وحكمتها، وعمومها وشمولها، وثباتها وتوازنها وواقعيتها ودقتها، وإيجابيتها وحركتها، وعصمة مصادرها وإطلاقيتها.

التوحيد وما يستدعيه:

يبرز التوحيد في التصور الإسلامي باعتباره المقوم الأساس من مقومات ذلك التصور، ولا شك أنه المفهوم الأساس والدعامة الكبرى فهو بمثابة أصل الشجرة وجذعها، أما فروعها فهي بقية المقومات والأركان التي تتكامل شجرة الإيمان بها، فهناك العالم الذي نعيش فيه وهناك عالم الغيب

وعالم الشهادة وهناك مصادر التصور ووسائط نقله للإنسان، وهناك الدار الآخرة وجانب الجزاء الذي يكون فيها، وهناك المخلوقات التي تشاركنا هذا الوجود دون أن يكون بيننا وبينها تداخل وتعامل مباشر، وهناك الرسل الذين سبقوا نبينا عليهم جميعا صلوات الله وسلامه، والكتب التي أنزلت عليهم، وكل ذلك مما أمرنا بالإيمان به.

وحدة العالم:

الإنسان الفرد هو النموذج المصغر لهذا العالم

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فالعالم إنسان كبير، والإنسان عالم صغير، والله سبحانه خالق الاثنين وقيوم الخلق كله، فالعالم بكل ما فيه ومن فيه متحد المبدأ ومتحد المعاد، وهو في حركة دائمة لا تتوقف باتجاه الغاية و المعاد تربط بين أجزائه علاقات، وتحكمه سنن ويجري تدبيره بقوانين لا تتبدل **{ذلك تقدير العزيز العليم}** (يس:٣٨) فلا يغير في قوانينه ولا سننه إلا هو. فلا الجدل المادي، ولا الترابط الميكانيكي ولا الارتباط العضوي [1] بمسئول عن حركة الكون أو سننه وقوانينه بل هو الله العليم الحكيم يدبر الأمر، ويقدر الليل والنهار **{الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن}** (الطلاق:١٢).

الغيب والشهادة:

التوحيد والتصور الإسلامي علما الإنسان أن العالم قسمان: غيب وشهادة، وكثيرا ما ورد الكتاب العزيز بذكر الاثنين ـــــ معا ـــــ الغيب والشهادة، وفي مجال الإيمان كثيرا ما يقترن ذكر الغيب بالدعوة إلى الإيمان به، أو الثناء على المؤمنين به، واعتبر في بعض الآيات ركنا من أركان الإيمان وبينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باعتباره ركنا أساسا من أركانه، والغيب غيبان: مطلق ونسبي: فالمطلق هو ما استأثر الله تعالى بعلمه **{وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا**

---

(١) راجع (مقومات التصور الإسلامي) سيد قطب، ص ٦١ وما بعدها، وقارن بصفحة ٣٥ منه، والرؤية التوحيدية مصدر سابق، وفلسفتنا لمحمد باقر الصدر أيضا.

هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} (الأنعام:٥٩)، وامتدح جل شأنه أولئك الذين يؤمنون بالغيب في آيات كثيرة، منها قولـه تعالى **{الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون}** (البقرة:٣) والغيب غيب بالنسبة إلينا، وهو: ما خفي أو غاب عن حواسنا لبعده أو لسبب آخر وهو غيب نسبي قد يتكشف مع الزمن وإلى نحوه يشير قولـه تعالى **{تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك}** (هود:٤٩) وهناك الغيب المطلق الذي لا يمكن للإنسان أن يصل إليه بحواسه النسبية لمحدوديتها، والإيمان بالغيب المطلق هو الذي يعد ركن الإيمان وليس بالغيب النسبي، لأن الإيمان به مشترك بين الجميع، فالغيب المطلق من عالم أمره تعالى استأثر سبحانه بعلمه **{عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا}** (الجن:٢٦) [١].

والله تبارك وتعالى وحده الموصوف بأنه **{عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم}** (الحشر:٢٢)، والإيمان بالغيب ضروري لتجريد التوحيد؛ كما أن التوحيد ضرورة للإيمان بالغيب، والتوحيد يستدعي الإيمان بالغيب، فالله تبارك وتعالى غيب مطلق وعنه صدر الغيب، والإيمان بالغيب هو الذي يساعد الإنسان على فهم حدوده ودوره المرسوم لـه في هذا الكون، وموقعه في منظومة الخلق: فيدرك حقيقة العبودية وشرفها فيقبل عليها طائعا مختارا، ويدرك في الوقت ذاته عظمة الألوهية وقدسيتها وتعاليها وتنـزهها، وذلك يحميه من أن ينسبها إلى أي أحد غير مستحقها الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

ويستدعي التوحيد فيما يستدعيه الإيمان بالمخلوقات الغيبية فهي جزء من عالم الغيب، وهي أصناف ثلاثة:

أ ـــ الملائكة:

وهي مخلوقات نورانية غير قابلة بفطرتها لممارسة المعصية **{لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون}** (التحريم:٦) وهم بالإضافة إلى انهماكهم بالعبادة والتسبيح والتقديس والتنـزيه لـه سبحانه فإن منهم الموكلين بكثير من الأعمال التي تتصل بتدبير الكون، فمنهم الملك الذي ينـزل

---

(١) راجع (مقومات التصور الإسلامي) مصدر سابق ص ٤٣ وما بعدها.

بالوحي إلى الأنبياء، ومنهم الكرام الكاتبون، ومنهم الملائكة الذين يقبضون الأنفس حين موتها، ومنهم فصائل المعقبات الذين يقومون بعمليات الحفظ والتدبير بإذن الله.

ومع ذلك فليس هناك اتصال مباشر لنا بهم، ولا ينبغي أن نخشاهم أو نرجوهم، أو نتوسل بهم، ومن فوائد الإيمان بالملائكة أن ندرك أن الشر مهما طغى واستبد واستعلى فإن الخير أوسع منه، والنور أكثر انتشارا من الظلام، وإن الإنسان مهما أطاع الله وعبده، واتبع أوامره واجتنب نواهيه فإن لله عبادا أكثر منه طاعة، وأشد منه التزاما وأكثر عبادة فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بعبادته وطاعته فيحبط عمله، وحين يعرف الإنسان هذه المخلوقات على حقيقتها، ويعرف طبيعة وجودها ودورها؛ وكل ذلك يبلغه بطريق لا يحتمل إلا الصدق، لأنه صادر عن خالقها نفسه فإنه لن يغتر بها، ولن يستطيع أحد أن يخرجه عن الصراط، أو يغريه بعبادتها كما حدث لأمم كثيرة سابقة؛ قال تعالى **{ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون}** (سبأ: ٤١،٤٠).

ب ـــ الجن:

ويمثلون الظاهرة الغيبية المماثلة للإنسان في عالم الشهادة. فهم قد خلقوا من نار كما أخبر القرآن **{والجان خلقناه من قبل من نار السموم}** (الحجر: ٢٧) وقد أودعت فيهم قابلية الاختيار: اختيار سبيل الإيمان أو سبيل الكفر، الطاعة أو المعصية. ولذلك قال قائلهم ما نقله القرآن المجيد عنهم **{وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا}** (الجن: ١١ ـــــ ١٥). وهم وإن كانوا يحيون في هذا الكون لكن لا اتصال بين الإنس وبينهم فهم من عالم الغيب ونحن البشر من عالم الشهادة، وهم يروننا ولا نراهم ولا نسمعهم، وقد كانت يهود قد اتخمت (الثقافة الشفوية) في الجزيرة العربية قبل الإسلام بقصص الجن، ونقلت من التراث البابلي أساطير لا تحصى عن تأثير الجن في الإنس وإمكان دخول الجن ذكورا وإناثا جسد الإنسي والعبث به لو أرادوا ذلك، وإمكان وقوع النكاح بين الاثنين، وأن هناك رياضات نفسية يمكن للإنسان أن يقوم بها ليسخر لنفسه جنيا إن شاء أو اكثر. وإذا كان الإنسان لا يستطيع رؤية الجني على حقيقته الجنية النارية التي خلق عليها فإن الجني قادر على الظهور بشكل إنسان أو حيوان أو

ثعبان أو أي شكل آخر ليتمكن الإنس من رؤيته.

وكل هذه المعتقدات معتقدات منحرفة، جاء القرآن لينقذ الناس منها، ويحررهم من آثارها، ويبين لهم الحقيقة فيها، وهي حقيقة بسيطة لا ينبغي أن تتجاوز ما جاء به القرآن من أن هذا الكون يتجاور فيه عالمان: عالم الشهادة وعالم الغيب، وأن لكل من العالمين خصائصه ومقوماته والمخلوقات التي تنتمي إليه ووظائفها. وإيماننا بوجود أمم أمثالنا يجعلنا أكثر قدرة على إدراك عظمة الله تبارك وتعالى، وأكثر تطلعا لإدراك جوانب عظمته سبحانه، وأكثر رغبة في العمل على الكشف عن أسرار الكون وأنه لا نهاية لـــه يضعها الإنسان باختياره، أو لا تتوقف عند إنجازات الإنسان فيه: فالبشر أمة من الأمم لهم دورهم، والفلك الذي يسبحون فيه، فعليهم أن يكونوا أكثر تواضعا وأحسن عملا، وأن يتشبثوا بالحق الذي جاءهم وأن لا يتأثروا بخرافات الأولين، وأساطير الماضين، التي سبق أن شلت ارادات تلك الأمم، وشغلتهم وانحرفت بهم عن تعاليم المرسلين.

لقد أوضح القرآن لنا في سورة الجن وبعض الآيات الأخرى هذا الأمر بما لا مزيد عليه، ولا نحتاج لأن نعرف عنهم أكثر منه، لكن الإنسان طلعة بطبعه يتطلع إلى المزيد من التفاصيل، وهو نهم لا يشبع من المعرفة، ولكن هذا الأمر لا ينبغي أن ينساق الإنسان فيه وراء الأخبار والقصص والأساطير؛ لأن العقائد لا تبنى إلا على اليقين، واليقين لا يتأتى عن الغيب إلا من المصدر اليقيني الوحيد وهو القرآن المجيد، والمصادر الظنية لا يبنى اليقين عليها؛ ولذلك ذهب الإمام أبو حنيفة ومن إليه_ وهم على صواب في ذلك_ ألاّ يؤخذ في هذه الأمور إلا بالقرآن المجيد أو متواتر السنن المتفق مع القرآن، أو الذي لم يأت بزيادة يمكن أن تعارض ما جاء به القرآن.

وقد هلك في هذا الأمر فريقان: فريق نفى وجود الجن وسائر العوالم الغيبية فهلك في الوقوع في نفي ما أثبته القرآن. وفريق تقبل ما تسلل من أساطير وخرافات تراث الثقافة الشفوية المختلطة التي كانت سائدة في المدينة قبل هجرته عليه الصلاة والسلام وتغييره لثقافتها، والذي دس في أخبار فردية لم تخضع لمنهج الأئمة النقاد من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين والمتقدمين من المحدثين، فشاعت وانتشرت وفتحت العقل المسلم لتسلل مثل تلك الأساطير إليه. وبذلك أضاعوا فائدة ذكرها في القرآن المجيد، ودعوة الناس إلى الإيمان بها. بل جعل بعضهم من الإيمان بها مدخلا واسعا لتقبل كل ذلك التراث البابلي والإسرائيلي وتبنيه. وربما ساعد على ذلك الفهم المنحرف أو عدم فهم الجانب اللغوي بالدقة المطلوبة، فجعلوا من بعض الاستعمالات اللغوية سندا لتلك الافهام

المنحرفة، فهناك الجنون والجنة يطلقها اللغويون على من أصيب في جهازه العصبي، ونظرا لأنه لم يكن لهذا النوع من الأمراض جانب عضوي يربط بينه وبين المرض وأعراضه فقد نسب إلى الجن، فيقال: جن فلان أي أصابه الجن و(أجنه الله فجن) فهو مجنون [1]، والمادة ــــ لغة ــــ حقيقة في الاستتار ــــ أي: ستر الشيء عن الحواس، ولذلك يقال جنه الليل وأجنه أي ستره، وكذلك جن عليه وكل بستان ذي شجر ساتر يقال لــه: جنة لستر أشجاره الأرض أو ما يختفي وراءها. قال الراغب: الجن يقال على وجهين: أحدهما للروحانيين المستترة عن الحواس كلها بازاء الإنس، فعلى هذا تدخل فيه الملائكة والشياطين فكل ملائكة جن، وليس كل جن ملائكة، وعلى هذا قال أبو صالح: الملائكة كلها جن. وقيل: بل الجن بعض الروحانيين، وذلك أن الروحانيين ثلاثة: أخيار وهم الملائكة، وأشرار وهم الشياطين، وأوساط فيهم أخيار وأشرار وهم الجن. ويدل عليه آيات سورة الجن. و(الجنة) جماعة الجن، ومنه قولــه تعالى **{من الجنة والناس}** (الناس:٦) وقولــه تعالى **{وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا}** (الصافات:١٥٨) و(الجنة) كذلك الجنون، وقال تعالى **{ما بصاحبكم من جنة}** (سبأ:٤٦) أي جنون، والجنون حائل بين النفس والعقل. وجن فلان قيل أصابه الجن، وبنى فعله على فعل كبناء الأدواء نحو :زكم ولقي وحم. وقيل أصابت جنانه، وقيل حيل بين نفسه وعقله فجن عقله بذلك، وقولــه تعالى **{معلم مجنون}** (الدخان:١٤) أي ضامه أو انضم إليه من يعلمه من الجن، وكذلك قولــه تعالى **{ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون}** (الصافات:٣٦) والجان نوع من الحيات كذلك. فالثقافة الشفوية التي عبر القرآن المجيد عن رفضه لها، ونفيه لتصوراتها كانت ترى الجن بكل تلك الفاعلية والتأثير. والانحراف في فهم وهيمنة سليمان ــــ على سبيل المعجزة ــــ على فريق من الجن يصنعون لــه ما يشاء... الخ، كل ذلك قد أكد التصورات المخرفة التي اختزنها الناس عن الجن والعوالم الغيبية من الثقافات الوثنية، فجاء القرآن ليصحح تلك التصورات، فأما سليمان فتلك كانت بعض معجزاته في رسالة إلى قوم بنيت رسالات أنبيائهم على الخوارق والمعجزات، والخوارق في العطاء وتلك هي التجربة الإسرائيلية بما لها وما عليها.

أما الرسالة المحمدية فهي رسالة البيان والبرهان والعقل والمنطق، والاكتفاء بالقرآن المجيد عن

---

(١) راجع المصباح المنير مادة (جنن) ص ١٥٤.

الخوارق الأخرى {**أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**} (العنكبوت:٥١) وهي جواب على مطالبتهم لــه صلى الله عليه وآله وسلم بآيات وخوارق { **وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين**} (العنكبوت: ٥٠)، وأما إطلاق العرب على من أصيب في جهازه العصبي أو دماغه كلمة (مجنون) فذلك لأن الناس اعتادوا أن يحيلوا على الغيب كل ما يعجزون عن تفسيره من أمور، وفي الأمراض النفسية والعصبية يصعب عليهم أو يتعذر عليهم أن يكتشفوا في مستوى الطب القديم العلاقة العضوية بين هذا المرض وجسم المصاب به، فتحال تلك الأمراض على الجن و من إليهم.

ولكننا بفضل الله تعالى ورحمته حين نقف عند حدود ما امرنا بالإيمان به في القرآن الكريم فإننا لن نجد أنفسنا بحاجة إلى الإحالة عليهم لا في الصحة ولا في المرض، فنحن نؤمن بوجود الجن ونؤمن بكل ما أخبرنا الله تعالى عنهم. ونؤمن بأنهم لا سلطان لهم علينا، ولا يملكون لنا ولا لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا بعثا ولا حياة ولا نشورا، وأنهم لا يعلمون الغيب، وإلا لما لبثوا في العذاب المهين لعدم علمهم بوفاة سليمان الذي مات متكئا على عصاته، وظلوا يعملون ظانين أنه ما زال حيا. وأن من الرحمة التي من الله تعالى بها على البشرية بعد بعثة محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام توقف كل تلك الغيبيات كما في سورة الجن عن مخالطة البشر أو التداخل معهم.

ج ــ الشيطان:

النوع الثالث من المخلوقات الغيبية التي أمرنا بالاعتقاد بوجودها هو الشيطان، وهو مخلوق من نار ولكنه تمحض للشر. وهو كذلك مغيب عنا فلا نراه ولا نسمعه ولا نلمسه. ونحن مطالبون باتخاذه عدوا {**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا**} (فاطر:٦) وهو كذلك مجرد من أي سلطان أو قدرة على إيذائنا أو حرفنا عن وجهتنا أو التسبب في أية مشكلات لنا، وكل ما يستطيع فعله هو الوسوسة والإيحاء لإخوانه من شياطين الإنس بزخرف القول غرورا. والصلة الدائمة بالله ومداومة ذكره، وتلاوة كتابه، واللجوء إليه كفيل بإيجاد الحوائل بينه وبين عباد الله، وإبطال وساوسه وإحباط محاولاته، وكف شروره وأذاه. وهو لا يستطيع التأثير إلا في أولئك الذين يتخذونه وليا من دون الله ويطيعونه ويعصون الله تعالى.

وما يجده الناس في أنفسهم من خواطر السوء، نحو تقوية دواعي عمل الشر والإقبال على الباطل والانحراف فهو من وساوس الشيطان. وقد كشف الله تبارك وتعالى للبشر عن ذلك

ليدركوا حقيقة ما يدور في أذهانهم من خواطر، فيميزوا بين الحق منها والباطل، والخير والشر فيستجيبوا لدواعي الخير، ويمسكوا عن دواعي الشر، ويسترسلوا مع خواطر الخير. ويتوقفوا عن الاسترسال مع دواعي الشر، وفي كل هذه الأمور الغيبية ليس لنا أن نتجاوز ما ورد في آيات الكتاب الكريم، وربط السنن الصحيحة الواردة فيها بتلك الآيات؛ لأن العقائد يقينية، والظن لا يبنى عليه اليقين **{إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا}** (النجم:٢٨)، ومن أهم فوائد الإيمان بوجودهم إضافة إلى حث كل الطاقات العدوانية لدى الإنسان عليهم، تقوية أجهزة المناعة النفسية والروحية لدى الإنسان وشحذ فاعليتها باستمرار وعدم السماح لبداء الغفلة بالاستيلاء على الإنسان، والهيمنة عليه فيشقى، فالمؤمن حارس يقظ لا يغفل، ولا يعطي عدوه المبين هذا أية غرة من نفسه، ولا يسمح لـــه بإغوائه. والقرآن المجيد قد أوضح لنا سائر التفاصيل المتعلقة بهذا الشيطان الرجيم، وذكر لنا أهم أساليبه، وشرح لنا وسائله والأدوات التي يعتمد عليها في استدراج الناس وإيقاعهم في شراكه وحبائله. كما أوضح لنا ضعفه بجانب القوى التي زودنا الله بها فقال تعالى **{إن كيد الشيطان كان ضعيفا}** (النساء:٧٦)، وبين لنا كيف نتقيه بل كيف نطرده تماما من حياتنا، ونحاصره ونرد على مكائده ونجعل من وجوده وسيلة تقوية لأجهزة مناعتنا ـــــ كما أشرنا ـــــ فالشيطان بمثابة ميكروب أو فيروس يحاول العمل إذا غفل منا جهاز المناعة أو استرخى ليصيب منا مقتلا تنفيذا لتهديد أبيه إبليس لأبينا آدم وبنيه **{ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا لـــه ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين قال ياإبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط علي مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم}** (الحجر:٢٦ ـــــ ٤٤).

الإيمان بالرسل والأنبياء كافة:

ومما يستلزمه الإيمان بوحدانيته تعالى وأحديته في ذاته وصفاته وأفعاله كما يستلزمه الإيمان بالغيب، الإيمان بالرسل والأنبياء كافة ؛ إذ إن الله تعالى لا يكلم البشر كفاحا في الدنيا، ولا يخاطبهم بشكل مباشر، وما كان لهم ولا يطيقون، ولكنه يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس فيوحي إليهم بإذنه ما يشاء وهم يبلغون من أمروا بتبليغهم من أقوامهم ومعاصريهم ما يوحي إليهم **{وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم}**(الشورى:٥١) **{وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين}** (الشعراء:١٩٢ ـــــ ١٩٥) والنبوة والرسالة تقومان على (الوحي) وهو الإعلام السريع، الخاص بمن يوجه إليه بحيث لا يطلع عليه غيره ، ولا يشاركه فيه سواهن والوحي إلى الأنبياء والرسل غير الإلهام وغير العرفان وغير الفيض وغير (التوحيد الغريزي) وغير الوحي إلى الملائكة[1].

والدين كله لله تعالى والله جل شأنه هو مصدر الدين كله، والدين يتألف من عقيدة وشريعة وسلوك؛ والعقيدة ثابتة لا يطالها التغيير وما ينبغي لها أن تكون قابلة لـــه، والشرائع فيها الثابت وفيها المتغير، وتتابع الأنبياء والمرسلين يعزز في ثبات الثوابت ويؤكد عليها، ويبين المتغير وأسباب تغييره، ويؤكد على القيم وضرورة مراعاتها ووحدة المرجعية الدينية للبشرية بوحدة الأنبياء والمرسلين. وهذا الركن من أركان الاعتقاد يجعل أمة الأنبياء واحدة، ويمكن الإنسانية من رصد خطوط الاستقامة والانحراف في مسيرتها ويجعل لديها القدرة دائما على التجديد والتجدد وفقا لمنهاج النبوة في ذلك.

ونحن نؤمن بنبوة كل من نبأه الله أو أرسله عرفناه أم لم نعرفه، ذكر في القرآن أم لم يذكر، لكن من عرفناه وورد ذكره في القرآن نؤمن به كما عرفنا به، ومن لم يذكر لنا آمنا به وبما جاء به على الجملة فإن الله تعالى قال **{إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله**

---

(١) راجع الوحي المحمدي ص ٤٣ وما بعدها ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده.

موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لألا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا} (النساء:١٦٣ ـــــ ١٦٦).

عصمة الأنبياء:

الأنبياء والمرسلون من مهامهم الأساسية ومن حكمة الله تعالى في جعلهم من البشر أن يقدموا للناس الأسوة والنموذج والمثال. وهم بدعوهم وبسلوكهم وبعدم مخالفتهم لما يدعون لـــه، أو مخالفتهم إلى ما ينهون الناس عنه يقنعون الناس بأن ما يطلبونه منهم لا يتجاوز طاقاهم البشرية، ولا قدراهم الإنسانية العادية فالرسل والأنبياء أنفسهم بشر ممن خلق الله من البشر، وقد استطاعوا الالتزام بالدين عقيدة وشريعة وسلوكا، فلو لم يكن هذا الالتزام في حدود إمكان البشر وطاقاهم لما استطاعوا الالتزام به. وليكونوا نموذجا ومثالا لا بد لهم من العصمة من الذنوب، والقدرة على ضبط النفس وصيانتها وعدم تمكينها من مقارفة الذنوب والوقوع فيها؛ لأن الوقوع في الذنوب يحطم فكرة النموذج والمثال الذي يقدمونه لأقوامهم بسلوكهم والتزامهم بما يدعون إليه، من ناحية أخرى، كما أن أمر الله للبشر باتباعهم والتأسي بهم لو جوزنا وقوع الذنوب منهم سيكون بمثابة أمر بمتابعتهم في تلك الذنوب؛ لأنها جزء من أعمالهم. ليس ذلك فقط، بل إنه سبحانه قد حماهم من المنفرات الطبيعية؛ لأن طبيعة عملهم بين الناس تجعل من المنفرات وسائل لإبعاد الناس عنهم. وهو أمر يعقد مهمتهم، ويذهب بالحكمة من كونهم بشرا، قد ذهب بعض العلماء في هذا الأمر فأكد عصمتهم من الذنوب صغيرها وكبيرها قبل النبوة وبعدها. كما ذهب آخرون بتجويز وقوع سائر الذنوب منهم.

أشار القرآن المجيد إلى مبدأ العصمة حيث قال **{وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين}** (الأنبياء: ٧٣) وقال تعالى **{أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده}** (الأنعام: ٩٠) وأهل الكتاب لا يؤمنون بعصمة الأنبياء، وقل أن سلم نبي من أنبيائهم، أو ممن عرفوهم من المرسلين من الاتهام بارتكاب ذنب من الكبائر فضلا عن الصغائر وأحيانا من السبع الموبقات. مع أن كتبهم لم يرد فيها ما يؤيد هذا الاتجاه. ولذلك فلا بد من الحذر مما يوردونه من قصص الأنبياء، وعرض ذلك على الكتاب المهيمن على الكتب كلها، وهو القرآن.

وأما ما ورد من آيات في القرآن نحو قوله تعالى **{واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات}** (محمد:١٩) وقوله في بداية سورة الفتح **{إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما}** (الفتح:١،٢) فهو محمول على مخالفة الأولى بالقيام بما تكون عاقبته منافية للمصلحة، أو غير محققة لمقاصد الشارع: (فحسنات الأبرار سيئات المقربين) يدل لذلك طبيعة المسائل التي عوتب عليه الصلاة والسلام عليها وعدت في الذنوب والمخالفات مثل (مفاداته أسرى بدر وإذنه للمنافقين بالتخلف عنه، وعبوسه بوجه الأعمى ونحو ذلك) نحو **{عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين}** (التوبة:٤٣). وما جرى مجراه مما هو مباح له صلى الله عليه وآله وسلم ومندرج تحت صلاحياته.

الإيمان بالكتب والصحف والألواح:

كل ما أنزل الله على أنبيائه ورسله من كتب كالتوراة والزبور والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى، والألواح التي أنزلت إلى موسى، ما ورد في القرآن ذكره، وما لم يرد، فإننا نؤمن به وبنسبته إلى الله تعالى، فنحن نؤمن بأن الله قد أنزل على رسوله موسى كتابا اسمه التوراة، فيها هدى ونور وعقيدة وشريعة، وقد ذكر القرآن بعض ما جاء فيها من العقيدة نحو **{اعبدوا الله ما لكم من إله غيره}**(الأعراف:٥٩) والشريعة نحو **{وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون}** (المائدة:٤٥) ونؤمن بأنها تعرضت للتحريف، وأن الأحبار والربانيين الذين استحفظوا عليها قد فرطوا فيها وأضافوا وحذفوا بأيديهم ما شاءوا. وأن القرآن قد قام بالهيمنة عليها ومراجعتها مراجعة نقدية أزالت عنها ما أضيفت إليها من زيادات، وأعادها القرآن إلى حالة الصدق التي كانت عليها حين أنزلت. وكذلك فعل مع سائر الكتب الأخرى والصحف والألواح، لتتوحد مرجعية البشرية في هذا القرآن المصدق لما بين يديه وما خلفه والمهيمن على كل ما تقدمه، والمستوعب لكل الحق الذي جاءت به، والمتجاوز لكل ما دعت الضرورة أو الحاجة إلى تجاوزه من معالجات ذات ارتباط مباشر بالزمان والمكان. فالرجوع إليه رجوع إليها كلها، والرجوع إليه مغن عن الرجوع إلى ما عداه، أما الرجوع إلى ما سواه فلا يغني عنه بحال من الأحوال **{يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم**

تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم} (المائدة: ١٥،١٦).

إن من اطلع على ما بقي بأيدي البشرية من الكتب السماوية السابقة للقرآن، وفي مقدمتها العهدان القديم والجديد، لا يستطيع أن يؤمن بأن هذه الكتب، بما اشتملت عليه من مشكلات وبما هي عليه، يمكن أن تكون وحيا من الله تلقاه ونقله عنه أنبياء معصومون، فهي دون ذلك المستوى بكثير. وذلك لتصرف الأحبار والربانيين فيها بالحذف والزيادة والتغيير والتحريف. وقد واجههم القرآن المجيد بذلك كله **{من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه}** (النساء: ٤٦) **{فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون}** (البقرة: ٧٩).

الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر، وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال هو الركن الثاني للدين الذي بعث الله به الرسل عليهم السلام، وبه يكمل الإيمان بالله تعالى، وهو من أهم البواعث على العمل الصالح، وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان، وكان جل مشركي العرب ينكرونه أشد الإنكار، وأما أهل الكتاب وغيرهم من الملل ـــــ التي كان لهم كتب وتشريع ديني ومدني ثم فقدت كتبهم أو حرفت واستحوذت عليهم الوثنية ـــــ فكلهم يؤمنون بحياة بعد الموت، وجزاء، يختلفون في صفتهما لا في أصلهما، ولكن إيمانهم هذا قد شابه الفساد ببنائه على بدع ذهبت بجل فائدته في إصلاح الناس، وأساس تلك البدع بدأت عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين، وخلائف النصارى المتبعين لدين القيصر قسطنطين، بوجود المخلص الفادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا، ويفديهم من الذنوب بنفسه، وهو الأقنوم الثاني من الثالوث الإلهي، الذي هو عين الأول والثالث، وكل واحد منهما عين الآخر، وكل ما تقولـــه النصارى في فداء المسيح للبشر، وغير ذلك من ولادته إلى رفعه فهو نسخة مطابقة لما يقول الهنود في كرشنة وبوذا، في اللفظ والفحوى كما تقدم، قلما يختلفان إلا في الاسمين: كرشنة، ويسوع.

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب إسرائيل، وادعوا محاباة الله تعالى لـــه على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة، ويسمونه إله إسرائيل، كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين **{وقالت**

اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه } (المائدة:١٨) وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية، فكان فساد الإيمان بهذا الركن من أركان الدين تابعا لفساد الركن الأول، وهو الإيمان بالله تعالى ومعرفته، ومحتاجا إلى الإصلاح مثله.

جاء القرآن للبشر بهذا الإصلاح، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول، وهو ما كرم الله تعالى به الإنسان، من جعل سعادته وشقائه منوطين بإيمانه وعمله، اللذين هما من كسبه وسعيه، لا من إيمان غيره وعمله، وأن الجزاء على الكفر والظلم والفساد في الأرض يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه، بدون محاباة شعب على شعب، والجزاء على الإيمان والأعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل، فالحسنة بعشر أمثالها، وقد يضاعفها الله تعالى أضعافا كثيرة.

وقد نص القرآن على أن ما جاء به من هذا الإصلاح هو ما أوحاه تعالى **{سيجزيهم وصفهم}** (الأنعام:١٣٩) وهذا هو الحق الذي يثبته من عرف حقيقة الإنسان، وحكمة الديان، وهو مما أصلحه القرآن من تعاليم الأديان.

فإذا علمت ما كان من إنكار مشركي العرب للبعث والجزاء، ومن فساد إيمان أهل الكتاب في قضية الإيمان باليوم الآخر، واضطراب سائر الملل في هذا الجانب من العقيدة، وعلمت أنها مكملة للإيمان بالله تعالى. وأن تذكرها هو الذي يقوي الوازع النفسي الذي يصد الإنسان عن الباطل والشر، والظلم والبغي، ويرغبه في التزام الحق والخير وعمل البر، ويحرر وجدانه من الخوف والرجاء والرغب والرهب من غير الله تعالى، علمت أن إصلاح هذه العقيدة بطريقة القرآن هو ما فعل فعله العاجل في شعب كبير مثل الشعب العربي، اهتدى واهتدت به الشعوب الأمية كلها. لما اشتمل عليه أسلوب البنيان القرآني المعجز الحكيم من التذكير المستمر بها في القرآن الكريم بالأساليب العجيبة التي فيها من حسن البيان، وتقريب البعيد من الأذهان، تارة بالحجة والبرهان، وتارة بضرب الأمثال التي يعقلها جمهرة الناس، والأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون، حتى صارت هذه الأركان بناء متكاملا متراصا، يقف التوحيد على قمته، وتنعكس آثاره وأنواره على سائر جوانب ذلك البناء؛ وبذلك يصبح الميزان الذي لا يخطئ، والمعيار الذي لا يجحف، والعقد الذي لا ينفرط **{يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا }** (النساء:١٣٦) وقد ردد القرآن ذلك في آيات بينات لعلها تبلغ المئات. ومن إعجازه أنها لا تمل

ولا تسأم، بل لا يكاد يشعر قارئها بتكرار معانيها، وإن تقارب جنسها ونوعها، وترادفت سورها، فتأمل ذلك في سور المفصل، تر ما يظن أنه تكرار الكلام على البعث والجزاء ولكن بما لا يخطر على بال بشر من اختلاف الأسلوب والنظم والفواصل، ولا سيما المتناسبة المتصلة كالمرسلات مع النبأ، والنازعات مع عبس، والتكوير مع الانفطار، والمطففين مع الانشقاق، وغيرهن.

قلنا: إن الإيمان بالبعث والجزاء، وهو الركن الثاني في جميع الأديان، من لوازم الركن الأول، وهو الإيمان بوحدانية الله المتصف بجميع صفات الكمال، المنــزه عن العبث في أفعاله وأحكامه، توحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قولــه بعد ذكر البعث وجزاء الكافرين في آخر سورة المؤمنون { **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون** } (المؤمنون: ١١٥) وقولــه في آخر سورة القيامة {**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**} (القيامة: ٣٦) فكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الإيمان يستلزم كفره بحكمة ربه، وعدله في خلقه، وكفره بنعمته بخلقه في أحسن تقويم، وبتفضيله على أهل عالمه (الأرض) حيث سخرها وكل ما فيها لمنافعه، وعلى كثير ممن خلق في عالم الغيب الذي وعد بمصيره إليه، ويستلزم جهله بما وهبه من المشاعر والقوى والعقل، وجهله بحكمته في خلقه مستعدا لما ليس لــه حد ونهاية من العلم الدال على انه خلقه لحياة لا حد لها ولا نهاية في الوجود.

ومن لوازم هذا الكفر والجهل كله احتقاره لنفسه باعتقاده أنه خلق عبثا لا لحكمة بالغة، وأن وجوده في الأرض موقوت محدود بهذا العمر القصير المنغص بالهموم والمصائب والظلم والآثام، وأنه يترك سدى لا يجزى كل ظالم من أفراده بظلمه، وكل عادل وفاضل بعدله وفضله، وإذا كان هذا الجزاء غير مطرد في الدنيا لجميع الأفراد تعين أن يكون جزاء الآخرة هو المظهر الأكبر للعدل الإلهي العام كما قال تعالى {**وإنما توفون أجوركم يوم القيامة**} (آل عمران: ١٨٥).

ومن أبدع أساليب القرآن الجامعة وأروعها وأشدها فاعلية في الدفع إلى الإيمان بذلك مشاهد المحاجة في النار بين الأتباع والمتبوعين، والغاوين والمغوين، والضالين والمضلين، من شياطين الإنس والجن، وبراءة بعضهم من بعض، ومنه التنادي والتحاور بين أهل الجنة وأهل النار.

البعث الإنساني جسماني وروحاني:

ومما جاء في القرآن مخالفا لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء، أن الإنسان في الحياة الآخرة يكون إنسانا كما كان في الدنيا، إلا أن أصحاب النفوس الزكية، والأرواح العالية،

يكونون أكمل أرواحا وأجسادا مما كانوا بتزكية أنفسهم في الدنيا، وأصحاب الأنفس الخبيثة والأرواح السافلة يكونون أنقص واخبث مما كانوا بتدسية أنفسهم في الدنيا، ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الغاوين أن الأديان القديمة كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد، إلا أنهم ظنوا بعد رسلهم أن أجسادهم تبقى بعد موتهم فيبعثون بها عينها، ولكن بين القرآن أن كل من على الأرض فان، وأنها تكون بقيام الساعة هباء منثورا. قال تعالى: **{نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون}** (الواقعة: ٦٠ ـــــــ ٦٢).

ولو كان البعث للأرواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق، المؤلف من نفس وجسد، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجسمانية، ويتحقق بحكم الله (جمع حكمة) وأسرار صنعه فيهما معا، من حيث حرم الحيوان والنبات من الأولى والملائكة من الثانية وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد إلا لاحتقارهم اللذات الجسدية وتسميتها بالحيوانية مع شغف أكثرهم بها، وإنما تكون نقصا في الإنسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها، حتى صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان، أو أضعفها.

وأصل هذا الإفراط والتفريط غلو الهنود في احتقار الجسد، وجعلهم مدار تربية النفس على تعذيبه بالرياضات الشاقة، وتبعهم فيه نساك النصارى كما تبعوهم في عقيدة الصلب والفداء والتثليث. فالبعث بعث الروح والنفس والجسد، لا بعث الروح وحدها، ولكن الإنسان المسكين قد يستبعد هذا، كذلك الجاهلي الذي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعظم إنسان ميت وأخذ يفتته ويقول: أتزعم يا محمد أن هذا سيبعث يوم القيامة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: نعم ويدخلك النار فنـــزل قولـــه تعالى: **{وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم}** (يس: ٧٨،٧٩).

الإيمان بالقدر والسنن الإلهية:

إننا نؤمن بأن الله تعالى هو خالق كل شيء بقدرته وإرادته واختياره وحكمته، وأنه **{الذي أحسن كل شيء خلقه}** (السجدة: ٧)، وأتقن كل شيء صنعه **{صنع الله الذي أتقن كل شيء]** (النمل: ٨٨) وأنه ليس في خلقه تفاوت ولا فطور، وأنه خلق كل شيء بنظام وتقدير **{إنا كل**

شيء خلقناه بقدر} (القمر: ٤٩) **{وخلق كل شيء فقدره تقديرا}** (الفرقان: ٢). وأن لـــه تعالى في نظام التكوين والإبداع وفيما هدى إليه البشر من نظم الاجتماع سننا مطردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات، لا تتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس، وأن سننه تعالى عامة في عالم الأجسام وعالم النفس والأرواح، وقد ورد ذكر السنن الاجتماعية باللفظ، في سورة المائدة، والأنفال، والحجر، والإسراء، والكهف، والأحزاب، وفاطر، والمؤمن، والفتح.

فهذه الآيات البينات ناطقة بأن القدر والتقدير عبارة عن النظام العام في الخلق الذي تكون فيه الأشياء بقدر أسبابها، بحسب السنن والنواميس العامة التي وضعها الخالق تبارك وتعالى لها، لا ما اشتهر عند عامة الناس، من أن المقدر ما ليس لـــه سبب، أو ما يفعله الله على خلاف النظام والسنن، وأنه يؤدي إلى إجبار الناس على ما يفعلون وما يتركون، بقطع النظر عن حبهم لذلك أو بغضهم لـــه، ورضاهم عنه أو عدم رضاهم، وقد يصح إطلاقه على ما يعرفون سببه ولا يحيط بأسباب الحوادث علما إلا خالقها ومقدر سببها وسننها.

ونؤمن بأن لله تعالى في خلقه آيات بينات، وأن لـــه في آياته حكما جلية أو خفية، وأن كلا من العقل والشرع يأبيان علينا أن نثبت وقوع شيء في الخلق على خلاف ما تقدم من نظام التقدير، وسنن التدبير، إلا ببرهان قطعي يشترك العقل والحس في إثباته وتمحيصه، وأنه لا بد أن يكون وقوعه لحكمة بالغة، لا عن خلل ولا عبث، وأن ما خفي علينا من حكمه تعالى فهو كسائر ما يخفى علينا من أمور خلقه، نبحث عنها لنـــزداد علما بكماله، ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا ولا نتخذها حجة ولا عذرا على الكفر به لجهلنا، وقد ثبت لأعلم علماء البشر في كل عصر أن ما نجهل من هذا الكون أكثر مما نعلم ويستحيل أن يحيط البشر به علما.

والإيمان بالقدر يكرس لدى المؤمنين به مبدأ البحث عن الحكم والعلل والأسباب، ويوجه العقول البشرية إلى البحث في أسرار الوجود، والكشف عنها، وعن السنن الكونية، وقوانين الوجود الإلهية، وذلك ما يمكن الإنسان من تسخير تلك السنن والقوانين بإذن الله لتحقيق غاية الحق من الاستخلاف وهو العمران.

كما أن الإيمان بالقدر يحمي الإنسان من الوقوع في شراك العبث والعدم، وانتفاء الغاية، وذلك والموت سواء، فإن الإنسان إذا استولى عليه الشعور بالعدم والعبث وانتفاء الغاية كره الحياة وضاق بها ذرعا، وقد يستولي عليه الشعور باليأس بضرورة التخلص منها فيعمد إلى الانتحار، ولعل الكفر والإلحاد لدى طوائف الفنانين وبعض العلماء في الغرب من التفسيرات المقنعة في تفسير ظواهر

الانتحار وانتشارها بين هذا الفريق من الناس خاصة.

هذا التوحيد بكل أبعاده، وما اقتضاه واستلزمه وتناوله وامتد إليه، أو انطوى عليه، ولم يكن شيئا كامنا في الضمير لا علاقة لـــه بمجريات الحياة ولا بمكونات الحضارة والعمران، كما آل إليه لدى الملايين من المسلمين، بل هو جوهر العمران وأساس البناء الحضاري، لذلك كان للتوحيد انعكاساته على سائر جوانب الحياة، بدءا بالفكر والتصور والاعتقاد، مرورا بالمعرفة وتجديد شبكة النظم والعلاقات المتنوعة وقواعد السلوك والأخلاق، وانتهاء بإقامة العمران وانتظام الخلق كله في فلك التسبيح ومدار التتريه ومسيرة التقديس والعبادة لله الواحد القهار.

إن (التوحيد) قد حدد للبشرية مرجعيتها المتجاوزة المنـــزهة المقدسة المتعالية. وحدد لها بكل دقة ووضوح مركز الكون أو الحي القيوم الذي لا يمكن أن يكون للكون قيوم أو مركز سواه **{ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل}** (الانعام:١٠٢)، إذ إنه وحده جل شأنه القيوم الذي تقوم به الكائنات كلها، فلا يملك الإنسان ولا أي مخلوق سواه استلاب هذا الموقع؛ وأنى للإنسان أن يكون مركز الكون وقيومه وهو نفسه عرض لا يقوم إلا بالله تعالى. ولا يملك الكون نفسه في عقيدة التوحيد أن يكون مركزا لذاته ولا أن يدعي أحد أن إله الكون يمكن أن يكمن فيه أو يتجسد به **{أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون}** (الطور:٣٥)؟! فعقيدة التوحيد تنفي ذلك كله وتلفظه. ووحدانية الله لا تستلب الكون ولا تستلب الإنسان كما توهمت بعض الفلسفات البشرية ولا تلغي التنوع والتعدد والهوية المتعينة للأشياء، بل يشكل التوحيد بمبدأ الفصل بين الألوهية والعبودية ضمانا لها. والإنسان المستخلف يتمتع بهوية متعينة، وله مهامه الواضحة المحددة تماما التي لا تتركه سدى، ولا تجعل من خلقه عبثا أو شبيها بالعبث، ولا تسلبه وتجعله مسيرا أو مسخرا كبقية المسخرات؛ بل يمنحه الله الواحد الأحد ميدانا ومجالا للحركة الحرة المنطلقة تمكنه من تحقيق مهامه إن شاء الله **{فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ولله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير والله**

أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} (النحل: ٧٤ ـــــ ٧٩).

ولندرك عظمة التوحيد، والأهمية البالغة لنقائه وصفائه وخلوصه من جميع الشوائب نستطيع أن نتدبر القرآن المجيد، ومعالجاته المتنوعة لسائر قضايا التوحيد، ويمكن أن نرصد بعض مستويات التناول، فهناك العديد من المستويات لتناول القرآن لقضية التوحيد، نوجزها فيما يلي:

المستوى الأول:

الآيات الكريمة التي تناولت التوحيد باعتباره الحقيقة الكبرى الأزلية الثابتة التي بلغ من ظهورها ووضوحها وثباتها بحيث ينبغي أن تقرر بصيغ الإعلان والتقرير، دون الالتفات إلى أي شيء أثير أو يثار حولها، إذ لا يمكن لشيء أن يتطاول إلى مستوى النيل من هذه الحقيقة العليا، ومن آيات هذا المستوى:

{وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمان الرحيم} (البقرة: ١٦٣).

{الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم لــه ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم} (البقرة: ٢٥٥).

{الله لا إله إلا هو الحي القيوم} (آل عمران: ٢).

{لا إله إلا هو العزيز الحكيم} (آل عمران: ٦).

{شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم} (آل عمران: ١٨).

{الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا} (النساء: ٨٧)

{ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل} (الأنعام: ١٠٢).

{اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين} (الأنعام: ١٠٦).

المستوى الثاني:

بيان وتقرير أن التوحيد هو المضمون الأساس لرسالات جميع الرسل وكافة الأنبياء، مع ربط التوحيد بصفات للباري سبحانه وتعالى تكون بمثابة العلل للتوحيد بكل أنواعه ونفي الشركاء. وتتنوع أساليب هذه الآيات أحيانا إلى التقرير ونفي ألوهية الأغيار مع إثبات الألوهية وحصرها فيه تبارك وتعالى، وتقديم التوحيد باعتباره العبادة التي دعا الأنبياء كافة أقوامهم لحصرها به جل شأنه.

ومن أمثلة هذا المستوى آيات سورة الأعراف:

{لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم} (الأعراف: ٥٩).

{وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون} (الأعراف: ٦٥).

{وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم} (الأعراف: ٧٣).

حتى إذا بلغ لوطا أضمر الخطاب دعوة هؤلاء القوم إلى إفراد الله بالعبادة، وكأن من بلغوا في الانحراف هذا المبلغ المتدني غير جديرين بأن يدعوا إلى التوحيد أو يطالبوا بالعبادة، فهم أحط من أن يوجه لمثلهم هذا الخطاب قبل أن يتطهروا مما هم فيه. ولذلك بدأ مخاطبتهم بتوجيه السؤال إليهم بصيغة استفهام إنكاري ينبه فيه إلى مدى قبح وبشاعة ما ترديوا فيه، بحيث لم يعودوا صالحين لشيء قبل أن يتطهروا منه، وذلك قوله تعالى **{ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين}** (الأعراف: ٨٠ ــــ ٨٤).

وفي الآية (٨٥) عاد الخطاب لبيان دعوة شعيب عليه السلام فقال تعالى **{وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم**

خير لكم إن كنتم مؤمنين} (الأعراف:٨٥) وقال تعالى **{أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم}** (هود:٢٦) **{وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون}** (هود: ٥٠) **{وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب}** (هود:٦١) **{وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط}** (هود:٨٤).

ومما يتصل بهذا المستوى أمر الرسل بأن يؤكدوا لأقوامهم تجردهم عن الغرض، واختلافهم التام عن أولئك الذين يدعون الناس لتأييد هذا الملك أو ذاك، أو رأس هذه الطائفة أو تلك فالأمر مختلف تماما فالرسل أنفسهم جزء من المدعوين والمخاطبين، فهم داخلون في الخطاب وهم مطالبون بأن يكونوا نماذج حية في تجريد التوحيد لتمكين الناس من التأسي بهم.

ويجري التوكيد على بشرية الرسل وعبوديتهم لله تعالى كسائر من خلق، لئلا يشرك ضعفاء العقل الرسل بالله تعالى في أي نوع من أنواع الشرك **{ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون}**(النحل:٢) **{قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار}** (ص:٦٥) **{فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات}** (محمد:١٩) **{لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا}** (الإسراء:٢٢) **{ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو}** (القصص: ٨٨) **{إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري}** (طه:١٤) **{وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدوني}** (الأنبياء:٢٥).

المستوى الثالث:

هو مستوى الاستدلال على التوحيد، وفي هذا المستوى يستوعب القرآن المجيد كله ما بلغه العقل الإنساني في أعلى مستوياته الفلسفية والحكمية من طاقات على بناء الأدلة ونقضها، والاعتراض عليها أو تأييدها، ويتجاوز أعلى مستويات الفلسفات البشرية والمنطق الإنساني والقسمات العقلية والهندسية والكلامية، بحيث تصبح عملية إحصاء وترتيب تلك الأدلة وطرائقها بحد ذاتها ضربا من الإعجاز. وما ذكره المتكلمون من أدلة الخلق والعناية والمانع لا تمثل إلا غيضا من فيض الأدلة التي ساقها القرآن المجيد على التوحيد.

وربما تأثر الكلاميون ببعض الآيات الكريمة التي سبقت في معرض الجدل مع الكفار، نحو قولـــه تعالى **{قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا}** (الإسراء:٤٢) وقولـــه تعالى **{لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون}** (الأنبياء: ٢٢) **{ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون}** (المؤمنون:٩١) ولكن عند التدبر نجد الاستدلال على التوحيد يتنوع بشكل لا يشبهه ولا يقاربه أي مستوى عرفته البشرية في جدلها وحوارها واستدلالات فلاسفتها وحكمائها، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد القرآن يبين خصائص الإلهية وحقائقها، ووظائف الربوبية ودقائقها، والصفات التي ينبغي أن يتصف الإله بها، ثم ينفي ذلك كله عن غير الله تبارك وتعالى، ويثبته لـــه جل شأنه وحده ويبين أنه وحده تبارك وتعالى المتصف بهذه الصفات، الجدير بها، وأن لا أحد سواه يملك أيا منها، أو يمكن أن يتصف به، ومنها قولـــه تعالى **{إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا لـــه الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون}** (الأعراف:٥٤ ـــــ ٥٧) وقولـــه تعالى **{إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون}** (يونس:٣ ـــــ ٥) **{هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين لـــه الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون}** (يونس:٢٢،٢٣) **{قل من يرزقكم من السماء**

والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون}** (يونس: ٣١ ـــــ ٣٦) **{قل يأيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين}** (يونس: ١٠٤ ـــــ ١٠٦).

ويوظف القرآن المجيد صفات الله تعالى في الاستدلال على التوحيد، ودعم قضيته بأسلوبه المعجز فهو يبين الصفة ويثبتها، ويبين تفردها وواحديته تعالى بالاتصاف بها، ويستدل بها بعد ذلك كله على وحدانيته تعالى في ألوهيته أو ربوبيته أو بهما جميعا، وقد يجعل تلك الصفات بمثابة العلة للألوهية أو الربوبية. ولذلك فإن القارئ لهذه الآيات أيا كان مستواه المعرفي سرعان ما يدرك تفاهة وتهافت سائر الاعتقادات عدا الاعتقاد بوحدانية الله تبارك وتعالى في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، وتوحده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وأفعاله. وآنذاك يظهر بوضوح شديد أن ذلك التوحيد هو الحقيقة الأزلية الكبرى الخالدة، وأي شيء غيرها دعوى متهافتة لا برهان عليها في أي مستوى من المستويات **{ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان لـــه به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون}** (المؤمنون: ١١٧).

ونورد هنا على سبيل المثال كيفية تناول القرآن المجيد بيان العلم واتصافه تعالى بالعلم في هذا المجال بحيث لا يستطيع متدبر الآيات المتعلقة بهذه الصفة أن يخطر بباله الهبوط إلى مستوى قبول ألوهية أحد غير الله تعالى فهو وحده تبارك وتعالى الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء **{إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء}** (آل عمران: ٥) وهو وحده الذي أحاط بكل شيء علما. وهو وحده الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض وهو وحده الذي يعلم الغيب والشهادة، ويعلم الخبء في السماوات والأرض. وهو وحده الذي يعلم ما يسرون وما يعلنون وما يبدون وما يكتمون، وما يخفون وما يعلنون. وفيما يلي بعض الآيات الكريمة التي تحدثت عن علمه تعالى:

{إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء} (آل عمران: ٥)
{وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} (يونس: ٦١)
{إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علمًا} (طه: ٩٨)
{ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير} (الأنبياء: ٧٠)
{عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون} (المؤمنون: ٩٢)
{قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورًا رحيمًا} (الفرقان: ٦)
{قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدًا يعلم ما في السماوات والأرض} (العنكبوت: ٥٢)
{يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها} (سبأ: ٢)
{لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} (سبأ: ٣)
{إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور} (فاطر: ٣٨)
{والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم} (الحجرات: ١٦)
{إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون} (الحجرات: ١٨)
{ألم ترى أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم} (المجادلة: ٧)
{يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور} (التغابن: ٤)
{عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم} (التغابن: ١٨)
{وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا} (الطلاق: ١٢)
{واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم} (البقرة: ٢٣٥)
{أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون} (البقرة: ٧٧)
{قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض

والله على كل شيء قدير} (آل عمران: ٢٩)

{إن الله عليم بذات الصدور} (آل عمران: ١١٩)

{إنه عليم بذات الصدور} (الأنفال :٤٣)

{وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون} (الأنعام: ٣)

{والله يعلم ما تبدون وما تكتمون} (المائدة: ٩٩)

{أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون} (النحل٢٣)

{وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى} (طه: ٧)

{وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون} (القصص: ٦٩)

{يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور} (غافر: ١٩)

{ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} (ق: ١٦)

{وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم} (الممتحنة: ١)

{يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور} (التغابن: ٤)

{وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور(**١٣**)ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير} (الملك: ١٤،١٣)

{والله بما تعملون خبير} (البقرة: ٢٣٤)

{إن الله بما تعملون بصير} (البقرة: ٢٣٧)

{لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم} (آل عمران: ٩٢)

{وما الله بغافل عما تعملون} (آل عمران: ٩٩)

{والله بما تعملون خبير} (آل عمران: ١٨٠)

{والله خبير بما تعملون} (آل عمران: ١٥٣)

{وكان الله عليمًا حكيمًا} (النساء: ١٠٤)

{وكان الله بما يعملون محيطًا} (النساء: ١٠٨)

{وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار} (الأنعام: ٦٠)

{ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون} (الأنعام: ١٣٢)

{وإن الله لسميع عليم} (الأنفال: ٤٢)

{وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين} (يونس: ٦١)

{يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور} (هود: ٥)

{وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين} (هود: ٦)

{الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعالي سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار} (الرعد: ٨-١٠)

{يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا} (طه: ١١٠)

{ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم} (الأنبياء: ٤)

{يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور} (الحج: ٧٦)

{ألا إن لله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم} (النور: ٦٤)

{والله يعلم ما تصنعون} (العنكبوت: ٤٥)

{إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم} (العنكبوت: ٤٢)

{والله بما تعملون خبير} (الحديد: ١٠)

{قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير} (المجادلة: ١)

{إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه} (المزمل: ٢٠)

{يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم} (البقرة: ٢٥٥)

{وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} (الأنعام: ٥٩)

{قل الله أعلم بما لبثوا لـــه غيب السماوات والأرض} (الكهف: ٢٦)

{والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيةً لقوم يسمعون} (النحل: ٦٥)

{إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير}(لقمان: ٣٤)

{إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه} (فصلت: ٤٧)

{عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا} (الجن: ٢٧،٢٦)

{ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين} (يونس: ٢٠)

{ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون} (هود: ١٢٣)

{ولله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير} (النحل: ٧٧)

{ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير} (لقمان: ٢٨)

{وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين} (النمل: ٧٧)

إن هذه الآيات الكريمة قد شرحت لنا هذه الصفة من الصفات الإلهية العلم شرحا معجزا، ولا شك بحيث لو اجتمع علماء الأرض كلهم على بيان حقيقة علم الله تعالى وأنواعه ومتعلقاته، وكيفية تعلقه بتلك المتعلقات على اختلافها لما أمكن أن يأتوا بعشر معشار ما جاءت به هذه الآيات الكريمات.

لقد تناول القرآن المجيد سائر الصفات الإلهية بهذا الشكل المعجز الشامل من أشكال التناول فليت علماء التوحيد عرضوا لسائر قضاياه وفقا لهدي القرآن المجيد وأسلوبه الحكيم المعجز هذا،

إذن لوفروا على الأمة نفائس الأوقات والأعمار التي فنيت بذلك الجدل الذي جر على الأمة من الفتن والاختلافات والصراعات وعوامل التمزق الويلات، وأدى بها إلى ذلك الدرك الهابط الذي تتردى فيه اليوم.

إن هذه الآيات البينات قد جاءت بما لا يحتاج الناس معه إلى سواه، دون أن تثير تلك الأسئلة الفجة التي شغلت جحافل من علماء الأمة قرونا طوالا نحو (هل علم الله تعالى مخلوق وهل هو ذاته أو غيره، وهل هو عين القدرة أو مباين لها، وهل هو عرض أو جسم؟) وغير ذلك من أسئلة وتساؤلات لم يبق القرآن المجيد لها أي مسوغ لو اكتفى الناس في مجال العقيدة به، وتخلوا عما سواه، لكن الكثيرين لجأوا إلى كل شيء وأي شيء، بل اتخذوا هذا القرآن مهجورا. وصاغوا علما سموه توحيدا وعقيدة وكلاما وأصول دين ما زاد الناس إلا حيرة وبلبلة، والمستعرض لما كتبوه في هذا المجال يجد العجب العجاب، فقد استمرت تلك الأساليب الجافة المشوبة بالمناهج الكلامية والأساليب المنطقية مسيطرة حتى أوائل هذا القرن حين كتب الشيخ محمد عبده كتابه (رسالة التوحيد) التي اعتبرت تجديدا حقيقيا في بناء علم التوحيد وعرضه، ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نسلم بأن (رسالة التوحيد) قد أعادت الأمر إلى نصابه وكرست التوحيد كما جاء القرآن الكريم به، وإني ناقل لك ما أورده الشيخ الإمام في رسالته عن صفة العلم بالذات ليكون بالإمكان ملاحظة الفروق الهائلة بين عرض القرآن لهذه الصفة، وعرض تجديدي إصلاحي هادف جاء بقلم شخصية علمية مجددة، ومع ذلك لم يسلم من تصلب تلك المصطلحات وجفاف تلك العبارات التي حفلت بها كتابات المتكلمين، يقول الأستاذ الإمام:

العلم ومما يجب لـــه صفة العلم، ويراد به انكشاف شيء من تثبت لـــه تلك الصفة، أي مصدر ذلك الانكشاف منه؛ لأن العلم من الصفات الوجودية التي تعد كمالا في الوجود، ويمكن أن تكون للواجب، وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت لـــه، فواجب الوجود عالم.

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة، ومن الممكنات من هو عالم، فلو لم يكن الواجب عالما لكان في الموجدات الممكنة ما هو اكمل من الموجود الواجب، وهو محال. ثم هو واهب العلم في عالم الإمكان، ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده.

على الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده عن الموجودات، فلا يتصور في العلوم ما هو أعلى منه، فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه، وإلا تصور العقل علما أشمل

وهو إنما يكون لوجود أكمل وهو محال.

ما هو لازم لوجود الواجب يفني بفنائه ويبقى ببقائه، وعلم الواجب من لوازم وجوده، فلا يفتقر إلى شيء ما وراء ذاته، فهو أزلي أبدي غني عن الآلات وجولات الفكر، وأفاعيل النظر، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة. ما يوجد من الممكنات فهو مرافق لما انكشف بذلك العلم وإلا لم يكن علما.

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الإحكام والإتقان ووضع كل شيء في موضعه، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه في وجوده وبقائه، وذلك ظاهر لجلي النظر مما يشاهد في الأعيان، كبيرها وصغيرها، علويها وسفليها، هذه الروابط بين الكواكب، والنسب الثابتة بينها، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قدر لها، وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره، وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية، كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره. [١]

انعكاسات التوحيد على مختلف جوانب الحياة:

إن التوحيد كما بين القرآن حقائقه عنوان الدين وجوهره، فإذا كان الدين عقيدة وشريعة وسلوكا، فإن التوحيد في عرض القرآن لـــه يتضمن ذلك كله ويستلزمه ويقتضيه ويستدعيه كما رأينا. فقد رأينا كيف أن القرآن الكريم يعرض الإيمان، كما لو كان شجرة باسقة جذرها التوحيد، بكل ما يتصل به بشكل مباشر، وجذعها وساقها الإقرار والاعتراف بذلك بكل وسائل الإقرار والاعتراف والإعلان الملائمة ، وأغصانها وثمارها الأعمال والسلوك.

وبقطع النظر عن موقف أهل الكلام والفلسفة والحكمة وفقهاء اللغة وأقوالهم المختلفة في هذا المفهوم الشرعي وغيره، فإن المصطلحات والكلمات التي استعملها الشارع قد قام بعملية تفريغ وشحن لها بالمعاني التي أراد الله سبحانه وتعالى وضعها فيها، وتضمينها في تلك المصطلحات، لتصبح مفاهيم شرعية تخضع لسياقات لغة الشارع وطبيعتها، وتعبر عن مراده تبارك وتعالى، وحين تصبح حقيقة شرعية ينبغي أن تكون الأولوية في معانيها للمعاني الشرعية، لا اللغوية التي نقلت

---

(١) راجع رسالة التوحيد، للشيخ محمد عبده، طبعة دار الشروق، ص ٤٠ ـــــ ٤٢.

عنها، ولا للوضعية التي يتواضع عليها أهل الاصطلاحات فالقرآن هو الحكم في تحديد معاني المفاهيم والمصطلحات التي ترد في لغة الشارع الحكيم، وكذلك السنة النبوية المبينة لـــه، حيث تعزز تلك المعاني وتزيدها جلاء وظهورا؛ ولذلك كان من خصائص هذا القرآن البارزة أنه يفسر بعضه بعضا.

وفي لغة القرآن قل أن يذكر الإيمان منفصلا عن العمل **{إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية}** (البينة:٧) **{إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون}** (فصلت:٨) **{إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون}** (الحجرات:١٥) **{من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}** (النحل:٩٧) **{والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}** (العصر:١ ـــــ ٣).

وتستمر آيات الكتاب الكريم تربط بهذا الشكل المعجز الدقيق بين الإيمان والعمل، عبر سور القرآن كلها بحيث لا يستطيع المتدبر لآيات الكتاب الكريم أن يتصور أن الإيمان أو التوحيد يمكن أن يوجدا منفصلين عن العمل، أو يمكن أن يكونا بسيطين منعزلين لا ينعكسان على شيء، وأنه يكفي استقرارهما في القلب للحصول على مسمى الإيمان، أو على الاتصاف به، وحمل لقب مؤمن أو موحد، ولذلك أقسم سبحانه وتعالى على ذلك، إذ قال تعالى **{فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}** (النساء:٦٥). والتحكيم فعل، وقبوله وتنفيذه فعل. فكيف ينعكس التوحيد على جوانب الحياة كلها؟

إن (العقيدة والتوحيد في موضع القلب منها) ثمرتها الأساسية معرفة وعمل، والمعرفة والعمل تمثلان ضوابط لتصرفات الإنسان ينطبع بها سلوكه العملي، في جوانب الحياة كلها الفردية والأسرية والعامة.

وهنا يحسم القرآن المجيد في قضية زيادة الإيمان ونقصانه، التي جعل المتكلمون منها مسألة طويلة الذيل، أنفقت في تحريرها والحوار فيها وحولها آلاف الصفحات من كتب علم الكلام. قال تعالى **{والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم}** (محمد:١٧) **{ويزيد الله الذين اهتدوا هدى}**

(مريم:٧٦) **{هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم}** (الفتح:٤) **{إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى}** (الكهف:١٣) **{ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا}** (المدثر:٣١) **{فأما الذين آمنوا فزادهم إيمانا وهم يستبشرون}** (التوبة:١٢٤).

ولولا أن الإيمان القرآني مفهوم متميز ومركب، يشمل المعرفة والتصديق القلبي والإقرار اللساني والعمل بأنواعه لما عد قابلا للزيادة والنقصان، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي والمخالفات. وهذا الارتباط الوثيق بين التوحيد والعمل هو الذي يعطي التوحيد باعتباره واسطة العقد في منظومة القيم العليا الحاكمة القرآنية القدرة الهائلة والمرونة التامة في تقييم الفعل الإنساني أيا كان تقييما دقيقا، إلى جانب القيمتين الأخريين: التزكية والعمران، بل يستطيع التوحيد منفردا أن ينعكس على ذلك بشكل دقيق، فمن الأفعال ما تدرك منافاته للتوحيد بداهة، ومنها ما يحتاج إلى نظر ليدرك ذلك فيه، ومنها ما لا تدرك منافاته للتوحيد إلا بنظر دقيق لا يمارسه إلا القادرون على ذلك.

تجليات التوحيد

تجليه على المعرفة:

إن التوحيد من أهم المحركات الموضوعية المؤثرة في اتجاه وإفراز الدواعي والقوى المحركة للمعرفة وتحديد مضمونها وتفسير الغامض والمبهم منها، والإجابة عن أسئلة (ما هو؟) (أي شيء هو؟) وماذا؟ وكيف؟ ولماذا؟ بل وتحديد ما يمكن التساؤل عنه وما لا يمكن أو لا يحسن السؤال عنه.

فالتوحيد يمثل حجر الزاوية في تكوين وبناء الرؤية الكلية عن الكون والحياة والإنسان، والتوحيد يوضح حدود وأبعاد الدور الإنساني في الكون والحياة. وفي الوقت نفسه يحقق قدرة كبيرة على صياغة المفاهيم الضرورية لبناء فاعلية الإنسان، وتشكيل دافعية العمران والتسامي فيه، وإيجاد المنطلقات المعرفية والثقافية السليمة لدى الإنسان.

إن الفلسفات البشرية ومصادر المعرفة الإنسانية ما زالت تتخبط في مواقفها من معظم القضايا الأساسية، مثل حقيقة الإنسان ومكانته ودوره في الحياة، وعلاقته بالطبيعة، وحقيقة الحياة، وحقيقة الموت، والتاريخ، والصيرورة، والزمن، وعلاقة الخالق بالمخلوق، والحق والباطل، وغيرها من الأمور التي تشكل الرؤية التوحيدية فيها أهم المعايير التي يزن الإنسان بها نشاطه النظري والعملي، وعليها يقيم موازين التفسير والتقويم لكل ما حوله، ويبني على أساسها علاقاته بالواقع الاجتماعي بجوانبه المختلفة. ولذلك فإن وصول البشرية إلى منهج معرفي سليم تعززه وتتظافر معه نماذج معرفية تتصل وتنبثق من نظام معرفي كامل، أمر في غاية الأهمية فإنه لا يمنح الإنسان القدرة على إدراك وفهم ما حوله والإجابة عن (الأسئلة الكلية النهائية)، وتفسير سائر ما يعرض لـــه في الحياة، ويفتح أمامه سائر الآفاق المعرفية مثل (التوحيد). فالتوحيد هو المفتاح الذي يفتح مغاليق سائر تلك الأمور وسواها.

لقد تجاذبت الإنسان في عصور مختلفة نظريات معرفة متنوعة، توزعت مواقف البشرية بينها، وتنوعت وفقا لها مواقفهم من المعرفة وقضاياها ومصادرها، وكيفية الوصول إليها، وآلة المعرفة لدى الإنسان، أهي العقل أم القلب أم النفس؟، والقائلون بأنها العقل ذهبوا مذاهب مختلفة في وحدة العقل الإنساني وتعدده، أو تعدد مستوياته إلى: العقل الهيولاني، والعقل بالملكة، والعقل

بالفعل، والعقل المستفاد، كما ذهب إلى ذلك ابن سينا[١] والرازي [٢] وغيرهما، متأثرين بمن سماه الفخر الرازي في كتابيه (المطالب العالية) و(الملخص في الحكمة والمنطق) بالإمام أفلاطون[٣].

أما التوحيد فيحصر مصادر المعرفة بمصدرين اثنين لا ثالث لهما هما: الوحي والوجود، والعقل بينهما وسيلة وأداة معرفة واستنباط وحدس وإدراك، بل وتوليد لأبعاد أخرى في الوقت ذاته. وفي الوقت نفسه يصنف التوحيد المعرفة إلى: سمعيات، ينحصر مصدر معرفتها بالسمع والنقل؛ ولا بد من تلقيها بطريق صحيح، وإلى تجريبيات، وطبيعيات، ضرورية أو كسبية، إلى غير ذلك من تفاصيل.

والسمعيات هي المصدر الوحيد لسائر الأمور الغيبية، فلا داعي لأن ينفق الإنسان النسبي المحدود أي شيء من عمره القصير وجهده العقلي، بعد ثبوت الدليل السمعي به لديه وإيمانه به، إلا في تلقي تلك المعلومات كاملة من الدليل السمعي. أما ما عدا ذلك من أنواع المعرفة فكلها ممكنة ومتاحة ولدى الإنسان الاستعداد والآلات القادرة على الوصول إليها بالتعلم ومراكمة ذلك بالأقلام . و(التعلم) هنا ليس تذكر معلومات سابقة أودعت في النفس قبل اتصالها بالجسم كما يذهب إلى ذلك أفلاطون [٤] لأن التوحيد علمنا أننا ولدنا لا نعلم شيئا **{والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون}** (النحل:٧٨) كما علمنا أن مصدر العلم هو الله تعالى **{وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين}** (البقرة: ٣١). وأن العلم ضروري أو كسبي أو عرفاني إنما هو عطاء الله **{وما أوتيتم من العلم إلا قليلا}** (الإسراء:٨٥) **{وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون}** (الأنبياء:٨٠) **{وعلمناه من لدنا علما}** (الكهف: ٦٥) **{وقل رب زدني علما}** (طه: ١١٤). وحين يؤمن الإنسان بهذا لن يستطيع الباطل المرتدي لبوس العلم أن يصل إلى عقله أو قلبه فيخبتا لـــه عن طريق العلم، فلا مجال للزيف

---

(١) راجع (في النفس والعقل) د. محمود قاسم، ص ١٩٩ وما بعدها.

(٢) التفسير الكبير(٢٠/٨٩)، ولوامع البينات (٢١٣)، وفخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية (٤٩٠).

(٣) المطالب العالية (٢/٢٦٨)، والملخص في الحكمة والمنطق (ب/٧٤) وفخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية (٥٠٦).

(٤) على ما نقله الرازي عنه في المباحث المشرقية (١/٣٧٦،٣٧٥).

والباطل والخرافة والشعوذة، ومالا دليل عليه ولا برهان، ولم ينــزل الله به سلطانا أن يحتل أي موقع في ذهن الإنسان الموحد وعقله مع كونه باطلا وزيفا وخرافة؛ فالتوحيد عاصم للإنسان من ذلك ومن كل ما لا يغني من الحق شيئا. وبذلك يرتبط الإنسان بالحق والحقيقة والعلم والبرهان وما يوصل إليهما.

والتوحيد يجعل العلم وسيلة للتقوى والارتباط بالله تعالى مصدر كل علم وخير ومعرفة **{إنما يخشى الله من عباده العلماء}** (الإسراء:٢٨) فلا يستطيع الغرور بالمعرفة والعلم أن يستولي على قلب الموحد أو عقله أو كليهما، فما يقول المؤمن الموحد تلك المقالة الفاجرة **{إنما أوتيته على علم عندي}** (القصص:٧٨) بل يقول دائما **{سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم}** (البقرة:٣٢)، وبذلك يوصل التوحيد علم الإنسان بالإنسانية كلها لا في حاضره وحده، وما هو متداول فيه، بل يفتح أمامه آفاقا ممتدة في الماضي إلى عهد آدم أبي البشر ليجعل كل ما توصلت البشرية إليه من علوم ومعارف، ودونته بأقلامها إرثا لــه فيه نصيب، وفي الوقت نفسه يفتح أمامه آفاق المستقبل، ليطل عليها دون إحساس بالنهايات التي يشعر بها الآخرون، فيتوقفون عند نهايات فلسفية محددة موهمة يمكن أن تؤدي إلى توقف حركة العلم، والحيلولة دون انطلاقه المستمر كما في فلسفات (End) والنهايات.

كما أن الموحد لن يسخر العلم إلا فيما يرضيه تعالى وينفع الناس فلا مجال لتسخير العلم لبناء أسلحة الدمار الشامل أو غير الشامل، ولا مجال لتسخير العلم ومنجزاته لإفساد الحياة، وإعلاء شأن الفساد والإثم فيها، وتدمير البيئة والإنسان والحياة والأحياء وخيانة واجب الاستخلاف ومهام العمران. والعلم والمعرفة عند الموحد يقتضيان العمل الصالح، فالموحد يستعيذ بالله من علم لا ينفع[١].

والتوحيد قبل ذلك وبعده يبني للإنسان المنهج العلمي، والنظام المعرفي، ويحدد لــه كل ما يتعلق بالمعرفة، بدءا بالمنهج والنموذج، وفلسفة المعرفة وتاريخها وتصنيفها، وانتهاء بوظائف العلم والمعرفة في حياة الإنسان والمجتمع. فهو نظرة عامة إلى الواقع والحقيقة والعالم والزمان والمكان

---

(١) راجع مقدمة الشيخ عبد الجبار الرفاعي لكتاب الشهيد محمد باقر الصدر (موجز في أصول الدين) ص ١٥، ط١، ١٤١٧هـ.

والتاريخ البشري [١]، لذلك استطاع التوحيد أن يمنح (العمران والتمدن) الإسلامي هوية خاصة ميزها عن سائر الحضارات الإنسانية السابقة واللاحقة، وجعلت من مكونات العمران والتمدن كيانا قائما يسمى (الأمة الوسط أو القطب أو خير أمة).

لقد استطاع التوحيد أن يحسم ذلك الجدل الذي تمرغت البشرية فيه ولا تزال، حول حقيقة العالم وحقيقة الخالق، والوصول إلى طبيعة العلاقة بينهما، ولا يزال هذا التخبط مصدرا ومنبعا لكثير من الشر والمصائب والصراعات والحروب، ونظرات الاستعلاء والدونية بين الشعوب. فالهندوسية وبعض الاتجاهات الغنوصية المتدرعة بالتصوف ترى ذوبان العالم واتحاده في الحقيقة الإلهية التي تعد الحقيقة الوحيدة في الوجود، وكل ما عداها وهم، ولا وجود حقيقي لـــه، وأما قدامى المصريين فقد كانوا يذهبون إلى فكرة ذوبان الوجود الإلهي في الطبيعة والعالم فالإله عندهم يتجلى في الفرعون، وفي الأنهار التي تجلب الخصب والحياة، وفي الشمس التي تعطي الحرارة والضياء، وفي العشب الأخضر الطالع في الأرض.

أما الإغريق والرومان فمع اشتراكهم مع الفراعنة في أصل ذلك المعتقد، لكنهم يذهبون إلى أن أي شخص عظيم أو مظهر من مظاهر الطبيعة يتعاظم يمكن أن يوضع فوق الطبيعة، وأن يضفي عليها سمات التأليه دون انفصال عن الطبيعة، فهو متصل في حقيقته منفصل من حيث امتيازه.

وقد تأثرت المسيحية بذلك التراث الإغريقي والروماني فتجاهلت التوحيد الذي كان جوهر رسالة السيد المسيح، وقبلت فكرة تجسد الرب في المسيح، ثم تقبلت فكرة تأليه المسيح نفسه[٢].

واليهودية وإن كانت أقل اضطرابا من الإغريق والفراعنة والنصارى في هذا المجال، لكنها بعد السبي البابلي وإعادة عزرا كتابة التوراة بعد أن ضاعت التوراة السابقة وسائر التراث اليهودي المدون ضمت إلى توراة عزرا كل ما في ملحمة كلكامش البابلية من تراث وثني ورؤى مضطربة حول الله والإنسان والكون والحياة والموت وسواها. فلم تعد تختلف عن الرؤى الوثنية الأخرى[٣].

وحضارة أوربا وأمريكا المعاصرة تدعى بحضارة الجودو كرستيان اليهودية المسيحية، قد ورثت

---

(١) راجع اطلس الحضارة الإسلامية، إسماعيل الفاروقي، الفصل الرابع.

(٢) راجع أطلس الحضارة الإسلامية، إسماعيل الفاروقي، الفصل الرابع من الطبعة العربية.

(٣) راجع ملحمة (كلكامش).

كل ذلك التراث الوثني المريض، وعلقت بها مشكلاته وتغلغلت فيها أمراضه، و لم تستطع الفلسفة أن تغني عنها شيئا أو تحررها مما علق بها من اوضار، وإن قال المتفلسفون: إن الفلسفة أقصر الطرق للوصول إلى الحقيقة، لكنهم بعد بحث في دروبها غير قليل، أدركوا قصورها ونقصها و لم يخفوا خيبة أملهم فيها؛ فهذا (ول ديورانت) الفيلسوف الأمريكي المشهور ـــــ صاحب كتاب (قصة الحضارة) (ومباهج الفلسفة أو قصور الفلسفة) يقول في كتابه الأخير (مباهج الفلسفة):

ما طبيعة العالم؟ ما مادته وما صورته وهيكله ؟ وما مواده الأولى وقوانينه؟ ما المادة في كيفها الباطن، وفي وجودها الغامض؟ أهو على الدوام متميز عن المادة وذو سلطان عليها، أم هو أحد مشتقات المادة وعبد لها؟ أيكون كلا العالمين: الخارجي الذي ندركه بالحس، والباطني الذي نحسه في الشعور، عرضة لقوانين ميكانيكية أو حتمية، أم ثمة في المادة أو في العقل، أو في كليهما عنصر من الاتفاق والتلقائية والحرية؟ هذه أسئلة يسألها قلة من الناس، ويجيب عنها جميع الناس. وهي منابع فلسفاتنا الأخيرة، التي يجب أن يعتمد عليها في نهاية الأمر كل شيء آخر، في نظام متماسك من الفكر. إننا نؤثر معرفة الإجابات عن هذه الأسئلة عن امتلاك سائر خيرات الأرض.

ولنسلم أنفسنا في الحال لإخفاق لا مناص منه؛ لأن هذا الباب من الفلسفة يحتاج في إتقانه إلى معركة كاملة ومناسبة بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء وعلم الحياة، بل لأنه ليس من المعقول أن تتوقع من الجزء أن يفهم الكل. فهذه النظرة الكلية ستبعد عن فكرنا جميع الفخاخ والمفاتن. ويكفي أن نأخذ أنفسنا بقليل من التواضع وشيء من الأمانة، لنتأكد من أن الحياة والعالم في غاية التعقيد والدقة، بحيث يصعب على عقولنا الحسية إدراكها، واكبر الظن أن أكثر نظرياتنا تبجيلا قد يكون موضع السخرية والأسف عند الآلهة العلمية بكل شيء. فكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نفخر باكتشاف مهاوي جهلنا! وكلما كثر علمنا قلت معرفتنا، لأن كل خطوة نتقدمها تكشف عن غوامض جديدة، وشكوك جديدة فالجزيء يتكشف عن الذرة والذرة عن الألكترون والالكترون عن الكوانتوم ويتحدى الكوانتوم، سائر مقولاتنا وقوانينا وينطوي عليها. والتعليم تجديد في العقائد وتقدم في الشك. وآلاتنا كما نرى مرتبطة بالشك وحواسنا بالعقل، ومن خلال هذا الضباب يجب علينا نحن الزغب على الماء أن نفهم البحر[1].

---

(١) راجع قصة الحضارة، ول ديورانت، الطبعة العربية، ص ٦١، ٦٢.

إن غرور الإنسان وكبرياءه جعله يحاول حل أو معالجة ما سماه الأقدمون بالعقدة الكبرى، ويسميه المعاصرون الأسئلة النهائية، ليصنع عالم غيبه بنفسه فلا يحتاج الى إله خارج ذاته، ويكون لـــه القدرة أن يقتحم عالم غيبه المصنوع متى شاء وكيف شاء، ومع أنه كان يؤوب دائما بالخيبة والفشل إلا إذا أسعفه الوحي، لكنه لم يتوقف عن المحاولة، مرة بطريق الفلسفة وأخرى بطريق العلم، وأخرى بطرق الخرافة والشعوذة، ورغم فشله المتكرر إلا أنه لم يستسلم، ولم يدرك أن ما يفعله لا طائل تحته؛ لأنه محاولة للكشف عن أمور في غاية الأهمية والخطورة بدون أدوات ووسائل مناسبة، أو بأدوات غير مناسبة لا تصلح لارتياد هذه الآفاق فضلا عن الكشف عنها. إن قضايا الغيب المطلق لا يستطيع العقل النسبي الوصول إليها بأدواته والإلمام بوسائله، ولا بد من تلقي حقائقها من الخالق تبارك وتعالى، فهو الذي أحاط بكل شيء علما، وهو عالم الغيب والشهادة، لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول.

قد يكون المفكر الغربي معذورا في لجوئه إلى العقل الإنساني والعلم البشري والفلسفة الآدمية، فهو قد عانى من الكنيسة ما عانى، فقد يكون لــه الحق أن يشرد ويهرب ويتمرد ويرفض المصدر السمعي الذي يخشى أن يرده إلى الكنيسة التي ارتبطت نهضته بهروبه منها، وما خرج من الظلمات التي وضعته فيها إلى التنوير إلا بالتمرد عليها، ولكن ما عذر هؤلاء المسلمين وقد جاءتهم بيضاء نقية، أن يلبسوا إيمانهم بظلم، أو يفضلوا التيه على الهدى، والعمى على الإبصار؟

(وجوليان ماكسلي) يتحدث بخبث ودهاء شيطانيين عن (التصورات الجاهلية المستندة إلى الجهل والخرافة) ويوازن بينها وبين العلم، ليبين أن تلك التصورات التي يسميها بخبث دينية لا حاجة لها في زمن العلم ويعمم (هاكسلي) بدهاء شيطاني صفة الخرافة على الدين كله؛ ليعلن ضرورة الاستغناء بالعلم عن الدين كله فيفرد فصلا في كتابه (الإنسان في العالم الحديث) بعنوان (الدين كمسألة موضوعية) جاء فيه: [(١)]

هل يستطيع العلم أن يلقي ضوءا على الأزمة الحالية في الدين، وعلى حلها الممكن في المستقبل؟ والحالة الخاصة التي تواجه الدين في المدنية الغربية هي: أن الاعتقاد في الله أدى كل ما يستطيع من فائدة، وليس في وسعه أن يفعل أكثر من ذلك. والإنسان خلق القوى الخارقة للطبيعة

---

(١) الإنسان في العالم الحديث، ترجمة حسن خطاب، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، سلسلة الألف كتاب.

ليلقي عليها عبء ما لا يستطيع فهمه، فاعتقد الإنسان البدائي في السحر، ثم في الأرواح الشخصية، ثم انتقل من الأرواح إلى آلهة كثيرة، ومن الآلهة الكثيرة إلى إله واحد، وبعبارة بسيطة انتهى التطور. والمرحلة الخاصة التي تهمنا في هذا التطور هي مرحلة الآلهة، ولقد كانت الآلهة في عصر ما من حضارتنا الغربية تخيلات ضرورية وفروضا نافعة تساعد على الحياة.

إلا أن الآلهة ليست ضرورية أو مفيدة إلا في إحدى مراحل التطور، ولكي يكون للآلهة قيمة عند الإنسان، لا بد من ثلاثة أشياء: يجب أن تبقي كوارث العالم الخارجي غير مفهومة، وإلا يمكن منعها حتى تكون مزعجة للغاية، أو أن تكون قسوة الحياة العامة وعجزها بحيث يحولان دون تصديق أن في الإمكان تحسين العالم. وعندئذ يستطيع الإله ــــــ ولا تستطيع الحياة الاجتماعية ــــــ أن يهيئ من الوسائل ما يلزم لإصلاح الحال. ويجب أن يظل الاعتقاد في السحر ساريا حتى ولو في صورة مهذبة. ويجب أن يكون الإنسان في حالة عقلية غير متقدمة، حتى يستطيع تشخيص القوى اللاشعورية لضميره الشعوري وقواه اللاشعورية كأنها كائنات بعيدة عنه.

ولقد أوصلنا تقدم العلوم، والمنطق وعلم النفس إلى طور أصبح فيه الإله فرضا عديم الفائدة، وطردته العلوم الطبيعية من عقولنا حتى اختفى كحاكم مدبر للكون، وأصبح مجرد (أول سبب) أو أساسا عاما غامضا. ولقد أدت زيادة المعرفة إلى إدراك أن السحر عقيدة باطلة، وان منع الكوارث لا يتحقق إلا بالعلم، وان الطقوس الدينية التي تصحب تقديم القرابين وصلاة الاستغفار عديمة المعنى، وأن تحليل العقل البشري وما كشفه عن قدراته على رسم الخطط وإشباع الرغبات وما كشفه عن العقل الباطن والكبت، يجعل أنه لا داعي للاعتقاد بأن الانحراف يرجع إلى قوة روحية خارجية، وأنه ليس من العلم في شيء أن ننسب التوفيق في الأعمال إلى هداية من الله.

ونعود إلى (ول ديورانت) الفيلسوف الأمريكي لنرى كيف يهاجم العلم، في معرض الدفاع عن تخبطات الفلسفة، وعدم استقرارها على رأي في تاريخها الطويل، وتعارض مناهجها وتناقضها فيقول:

ألنا أن نقرر: أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار، مع تتابع مذاهبها، وأن الفلاسفة جميعا خاضعون لثورة جنون قتل الأخوة؟ فلا يهدأ لهم بال حتى يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة. وكيف يجد الإنسان المشغول بالحياة من فسحة الوقت ما يفسر به هذه المتناقضات العلمية، أو ما يهدئ به هذه الحرب؟

انظر إلى عمر الخيام يقول في تجربته: (كنت أغشى وأنا صغير مجالس الأطباء والفقهاء، وسمعت منهم مناظرات حول الطب والفقه، فلم أظفر بنتيجة عن حقيقة الأمر، وكنت أخرج من الباب الذي أدخل منه) وأكبر الظن أن الخيام كان يجنح للخيال ولعله لم يخرج من الباب نفسه الذي دخل منه، اللهم إلا إذا كان قد ترك عقله مع تغلبه عند باب المسجد كما يفعل المسلم الورع.

ولست تجد أحدا يغشى صحبة الفلاسفة دون أن يغير عقله، ويوسع نظرته فيما يختص بآلاف المسائل الحيوية. فماذا بدل إيمان طفولة عمر إلى عبادة مشوبة بالشك، للجمال والخمر؟ أليست الفلسفة هي التي تضيف إلى رباعيات الخيام هذه العظمة؟

فليدرس أحدنا تاريخ العلم، وسوف يكشف فيه من التغيرات العجيبة ما يجعل تذبذب الفلسفة بين اليمين والشمال يتبدد في غمار سعة وعمق إجماع الأساس واتفاق كلمته.

وإلى أي نجم بعيد ذهبت نظريتنا المشهورة؛ هل يؤيدها علم الفلك الحديث أو يسخر منها من وجهها المغبر؟ وأين ذهبت قوانين نيوتن العظيم حين قلب اينشتين وغيره الكون رأسا على عقب بمذهب النسبية غير المفهوم؟ وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة في الفيزياء المعاصرة؟ وأين أقليدس المسكين اليوم وهو أعظم مؤلف للمراجع العلمية؛ ليرى كيف يصوغ الرياضيون لنا أبعادا جديدة بحسب أهوائهم، ويبتدعون لا متناهيات، ويثبتون في الفيزيقا والسياسة كذلك أن الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين؟.

وأين علم الأجنة ليرى أن (البيئة الناشئة) تحل محل (الوراثة) التي كانت إله العلم؟ وأين (جريجوري) و(مندل) الآن ليشهدا انصراف علماء الوراثة عن (وحدة الصفات) أنجد أنفسنا وقد عدنا مرة أخرى أكثر من قرن إلى الماضي نعانق رقبة زرافة (لامارك)؟ وماذا نصنع اليوم بمعمل الأستاذ Wundi وباختبارات (ستانلي هول) حين لا يستطيع أي عالم نفساني من أتباع السلوكيين أن يكتب صحيفة واحدة في علم النفس الحديث، دون أن يلقي بمخلفات أسلافه في الهواء؟

وأين علم التاريخ الحديث اليوم حيث يضع كل عالم في تاريخ قدماء المصريين كشفا بالأسرات وتواريخها على هواه، ولا يختلف عن كشوف غيره إلا ببضعة الآف السنين؟ وحين يسخر علماء الأجناس البشرية من (تيلور) و(سترمارك) و(سبنسر) وحيث يجهل (فريزر) كل شيء عن (الدين البدائي) لأنه قد رحل إلى العالم الآخر.

فماذا أصاب علومنا ؟ هل فقدت فجأة قداستها وما فيها من حقائق أزلية ؟ أيمكن أن تكون (قوانين الطبيعة) ليست سوى فروض إنسانية ؟ ألم يعد هناك يقين، أو استقرار في العلم؟.

أما نحن المسلمين الذين يسخر منا ديورانت، ويتهجم على ديننا هاكسلي، ويخلط بينه وبين الأديان الخرافية والبدائية والمحرفة، فنعرف ماذا أصاب العلوم والمعارف الإنسانية، وندرك أن أخطر الإصابات حدثت لها ونالت منها يوم أن انفصلت عن (التوحيد) وبعدت عن مصدرها الأساسي والأخير، وهو الله تعالى فجفت منابعها وتضاءلت فلسفتها وبرزت أزمات منهجها، وتناقضت مع نفسها، وبدأت متتاليات أزماتها بالبروز والظهور والتداول. فلم تغن عنها فلسفة ديورانت ولا علم هاكسلي شيئا.

إننا نحن المسلمين وبالرغم من أن موقعنا الحالي من العلم هو موقع المستهلك لا الشريك الفاعل، ورغم تخلفنا، نستطيع بالتوحيد وبالرؤية الكلية الإسلامية و(منهجية القرآن المعرفية) أن نعالج أزمة العلم، وأزمة المنهج، ونقوم بتنقية الفلسفة، وذلك بفك الارتباط بين الإنجاز العلمي الحضاري البشري والإحالات الفلسفية الوضعية بأشكالها المختلفة، وإعادة توظيف العلوم ضمن ناظم منهجي ومعرفي توحيدي ديني غير وضعي ولا لاهوتي، يقوم على (الجمع بين القراءتين) وفهم التماثل بين قوانين العلوم الطبيعية وقوانين الوجود التي قامت على المقاصد العليا الحاكمة لشريعتنا، وقيمنا العليا والقيم المتفرعة عنها.

وبذلك ننفي عن العلوم البعد الوضعي المحدد، ونعيد صياغتها ضمن بعدها الكوني، المتضمن للغائية الإلهية في الوجود والحركة. وبذلك يعيد الإنسان فهم مدلولات القوانين الطبيعية نفسها، فهما مغايرا لفهم أولئك الماديين والوضعانيين الانتقائيين أمثال ديورانت وهاكسلي، ونحوهما من أولئك الذين يشتركون جميعا في الانطلاق من فلسفة العلوم الطبيعية المعاصرة، التي حددت للوجود وحركته منهجا قائما على علاقة تفاعلية بين الإنسان والطبيعة، وبمعزل عن البعد الإلهي الغيبي الذي أنكرته أو تجاهلته تماما، فهاجت وماجت واضطربت وحادت عن الطريق.

إن فلسفة العلوم الطبيعية والعلوم الطبيعية نفسها لا يمكن لها أن تتعدى ميدانها، وتتجاوز حدودها لتقدم تصورا ورؤية كلية للوجود أو تفسيرا شاملا للكون والحياة والإنسان، وعالمي الغيب والشهادة، ففلسفة العلم والعلم ذاته بدأ تعاملهما مع الكون بعد وجوده، ولم تشهد كيفية وجوده، ولم تسهم بذلك الوجود، فأنى لهما الوصول إلى فهم وتفسير (حقيقة الوجود) بل وما

وراء الوجود ؟.

إن فلسفة العلوم الطبيعية، والعلوم الطبيعية كافة، والمنهج العلمي والتجريبي، كل أولئك إنما يتعاملون مع ظواهر الوجود، لا مع ماهية الوجود، ولا مع حقيقته، فضلا عما وراء تلك الماهية والحقيقة؛ وتقرير ذلك والوقوف عنده لا يعني نفيا للعلم، أو انتقاصا من قيمته أو تجاهلا لما قدمه للبشرية؛ بل يعني معرفة بحدوده وأبعاده وإمكاناته، وقدرات أدواته، ومجالاته. فالعلم لم يوجه للتعامل مع (عالم الغيب المطلق) أو الكشف عنه وتسخيره ، فذلك فوق طاقته، وخروج به عن المنهج السليم لفهم ما يهم البشرية فهمه من حقائق الوجود وما وراء الوجود، وعالم الغيب هو (الوحي) بطرقه الغيبية التي قررها العليم الخبير الذي يؤتي عباده من العلم ما يصلح ويستجيب لاحتياجاتهم في القيام بحق الأمانة ومهمة الاستخلاف، ويعينهم على بلوغ وجودهم وخلقهم. **[إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى]** وما من شيء يبعث في الإنسان الشعور بالاستغناء ثم الطغيان كالعلم والمعرفة من غير إيمان. وإذا كان العلم القليل الذي آتاه الله تعالى الإنسان قد أدى به إلى كل ما نرى من طغيان وتجبر وتمرد وتدمير للبيئة والموارد، وإهلاك للحرث والنسل، فما بالك لو أن الإنسان أوتي علم الغيب وحقائق الوجود؟.

لقد أعاد الإنسان تفسير العلم، وبناء مفهومه، فصار العلم والمعرفة (كل معلوم خضع للحس والتجربة) وهذا التعريف هو التعريف الذي اختاره اليونسكو وعممه على سكان الأرض، ليكون التعريف العالمي للعلم وللمعرفة، وليلقي كل ما عدا ذلك في سلة الخرافة، ليستريح الإنسان من النظر فيه أو النظر إليه، وحين اكتشف الإنسان الطاقة أدرك شيئا من ضلاله القديم في القرن التاسع عشر في النظر إلى المادة لا تستطيع لأن تعطيه تفسيرا دقيقا أو غير دقيق لكثير من الظواهر.

إن العقل البشري لم يؤهل للتحرك في عالم الغيب، وعالم الأمر الإلهي، ولذلك لم يعرض الله آدم لذلك الاختبار الذي عرض الملائكة لــه، فعلمه الأسماء كلها، إذ لو ترك الأمر لعقله لكان أعجز من الملائكة في ذلك. نعم ان العقل البشري مطالب بالاستماع إلى الرسل، والنظر فيما يأتون به، وتدبر معجزاتهم للوصول إلى الإيمان، فإذا آمن بالله الواحد الأحد، وقبل من الرسول ما جاء به فإن عليه بعد ذلك تلقي تفاصيل الإيمان وأركانه، ومقومات الرؤية الكلية ودعائمها من المصدر الإلهي الصادق من غير مقررات مسبقة، أو تعديلات وتأويلات وتشبيهات وتعطيلات لاحقة.

إن التجربة الإبراهيمية تبرز نموذجا حيا هاديا للبشرية، فالعقل الإبراهيمي قد وصل إلى تصور

إجمالي بعد جهد جهيد لوجود الله تعالى ووحدانيته، لكن صفاته تبارك وتعالى وألوهيته وربوبيته، وإدراك ذلك كله على التفصيل لم يتأت لإبراهيم إلا بعد تلقيه الوحي، ولم يصل إلى اليقين في تدبير الخلق بمجرد النظر بأدلة الخلق والعناية والرعاية، بل وصل إلى ذلك بعد التلقي عن الله تعالى.

إن إدراك الفلسفة مهما سمت لا يستطيع أن يتوصل لأكثر مما توصل إليه ذلك الأعرابي الذي قال Aالبعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا يدلان على العليم الخبير؟@ فهذا النوع من الإدراك الإجمالي لدى الأعرابي للألوهية والربوبية يمكن للفيلسوف ان يصل إلى مثله بوساطة النظر العقلي الفلسفي؛ ليقرر في نهاية الأمر ضرورة وجود (واجب الوجود) أو (علة العلل) أو (السبب الأول) ولكن لا يمكن لــه أن يصل بكل أدواته إلى هداية المرسلين، وتعريفهم الخلق بخالقهم، وصفات الكمال التي يتصف بها، وانتفاء أية صفة لا تليق بجلال ذاته، وحيثما حاول العقل البشري أن يسلك طريقا غير هذا الطريق ـــــــ طريق التلقي عن الرسل ـــــ جاء بالخبط والتخليط الذي لم يستقم قط في تاريخ الفكر البشري. يستوي في الخبط والتخليط تلك الجاهليات الوثنية التي انحرفت عما جاء به الرسل، والجاهليات اللاهوتية التي أدخلت على الأصل الرباني والإضافات التي اصطنعها العقل البشري، وفق مقولاته الذاتية، أو اقتبسها من الفلسفة، وهي من مقولات هذا العقل أصلا. والمفاهيم الفلسفية التي استقل الفكر البشري بصنعها، أو أضاف إليها تأثرات من الديانات السماوية وسواها.

وحيثما نظر الإنسان في هذه التصورات طالعته نتف من هنا ونتف من هناك. رؤية ناقصة دائما، تلتقط الصورة من زاوية واحدة، حقائق صغيرة متناثرة في ثنايا هذه التصورات، ولكنها ليست هي (الحقيقة) كما يأتي بها المرسلون عادة.

وهذا هو ول ديورانت يعود مرة أخرى للتفريق بين الإله كما تصوره الفلسفة الغربية في عهده. وينفي الإله كما يصوره اللاهوت النصراني أو الغربي بصفة عامة، فيقول: Aوأخيرا فإنها (الفلسفة) تتعلق بالله. ولسنا نعني إله اللاهوتيين الذي يتصورونه خارج عالم الطبيعة، بل إله الفلاسفة. وهو قانون العالم وهيكله، وحياته ومشيئته، فلو كان ثمة عقل يدبر هذا الكون فإن الفلسفة تود أن تعرفه وتدرك كنهه حتى تسايره ـــــ في الفكر ـــــ مع الاحترام. فإذا لم يكن ثمة عقل مدبر، فإنها تود أن تعرف ذلك أيضا حتى تواجهه بغير خوف@ قتل الإنسان ما أكفره!!

وإذا كانت الأفهام الفلسفية والرؤى اللاهوتية وراء شقاء الإنسان المعاصر وتهديده المستمر بالدمار، فإن (التوحيد القرآني) وحده هو البلسم الشافي لأمراض البشرية التي تعيش اليوم على شفا جرف هار.

التوحيد وتفسير العالم:

إن الرؤية الفلسفية المنفصلة عن الوحي، أو النظر العقلي الإنساني، الذي لم يتداركه لطف الله تبارك وتعالى بالوحي لا يمكن أن تكون منطلقا سليما لإعطاء تفسير للعالم؛ أما (التوحيد القرآني) فإنه رؤية كلية ونظرة عامة إلى الواقع والحقيقة والعالم والزمان والمكان والتاريخ البشري، لذلك فإنه يقدم تفسيرا سهلا ميسرا قائما على مجموعة من المبادئ التي يسهل إدراكها من سائر أنواع البشر مهما اختلفت مستوياتهم وطاقاتهم الإدراكية.

أ ـــــ الزوجية أو الثنائية في كل شيء عدا الله الواحد الأحد، فعلى الزوجية أو الثنائية يعتمد كل شيء من عالم الخلق والأشياء في وجوده ونموه وتطوره وبقائه. ما في الوجود عدا الله تعالى عالم خلق، خلقه الله أحسن الخالقين، لم يخلق من غير شيء، ولم يخلق نفسه وبقاءه، ولم توجده طبيعة، بل خلقه الخلاق العليم المتعالي المتجاوز، المتره عن مشابهة المخلوقين، أو الاتصاف بصفاتها، أو الحلول فيها، أو الاتحاد بشيء منها. ولذلك بدأت الشهادة: شهادة ألا إله إلا الله (بالسلب) لأن المنفي متكثر، والمثبت واحد فقط، ولذلك كان السلب عن المتكثر الذي لا يحصى مقدما لإثبات الألوهية للواحد الأحد الفرد الصمد.

إن أزمة (الحضارة المعاصرة) التي تحولت لسوء حظ البشرية إلى حضارة عالمية تتلخص في:

١ ـــــ ضلالها عن الله وتوحيده في ذاته وفي صفاته وألوهيته وربوبيته.

٢ ـــــ اللاهوت بشقيه اليهودي المحرف التائه المثقل بالتراث الوثني البابلي والتراث المحرف، والنصراني المثقل بوثنية الإغريق والرومان وتحريفات المحرفين. لم يعد قادرا على فعل شيء غير الوظائف الرخيصة التي حددها لـــه النموذج العلماني، فالكنيسة والنادي في هذا النموذج شيء واحد، كل منهما يلعب دورا، ويقدم خدمة للجمهور.

٣ ـــــ إن الحضارة المعاصرة تكاد تدمر كل المعابد: معابد اللاهوت، ومعابد الفلسفة، ومعابد العلم، ومعابد المنهج، فإن من تبلغ الحيرة منه المبلغ الذي أشرنا إلى نماذج منه، يصبح الموت والمجهول بالنسبة لـــه أرحم بكثير من تلك المعرفة الناقصة المتراقصة أمامه، مثل شاشة أسعار

الأسهم في بورصة نيويورك أو غيرها. وينتحر أو يفقد الإحساس بطعم الحياة، ويتحول آنذاك إلى إنسان مدمر.

إن الحضارة المعاصرة بدأت تفقد شعورها بالإنجاز والنجاح والتفوق، وهي ترى نفسها عاجزة عن الجواب عن كل ذلك الكم الهائل من تساؤلات ديورانت وهاكسلي ومفكري الحداثة وما بعد الحداثة، وعاجزة كذلك عن تفسير آلاف الظواهر التي عجزت الفلسفة والعلم الغربيان عن تفسيرها، وعاجزة عن الجواب عن آلاف التساؤلات الإضافية التي أثيرت بعد جيل هاكسلي وديورانت. إن هذا العجز المدمر في حاجة إلى (معجزة) ولا معجزة غير القرآن يمكن أن تنقذ البشرية وحضارتها وعمرانها وإنسانها من نتيجة صارت معروفة لدى علماء هذه الحضارة، وينتظرونها بسلبية دونها سلبية الجبري.

٤ ـــــــ إن القرآن وحده القادر على أن يحمي البشرية وإنجازها ويمنعها من العودة إلى نقطة الصفر أو البداية أو الجاهلية الأولى، وذلك لو أصاخت البشرية السمع لهذا القرآن، وأصغت إليه، وتعلمت (التوحيد) من محكم آياته، وتعلمت منه منهج (الله اكبر) و (الله اعلم).

٥ ـــــــ لكن مشكلة البشرية الأخرى أو أزمتها الإضافية أن القرآن بأيدي أمة جاهلة تعيش حالة (الاسترخاء الحضاري) وهي حالة خطيرة أشبه بحالة الطفيلي العاجز المسترخي الذي يعيش على ما عند الآخرين ولا يبالي. فهي أمة لا تعاني الأزمة ولا تشعر بها لتخلفها، وبالتالي فهي لا تدرك أزمتها ولا أن العالم في أزمة، وأن بيدها الحل الشامل لأزمة العالم المعاصر، والعالم الغربي المدرك للأزمة، والذي يعاني منها حرم على نفسه الاقتراب من القرآن؛ لأنه نظر إليه من خلال نظره إلى لاهوته، وما ينطوي عليه من أزمات، إضافة إلى أنه نظر إليه نظرة أخرى من خلال حالة البلاهة والبلادة والاسترخاء الحضاري الذي يعيشه المسلمون، فظن أن القرآن مسؤول عن حالتهم تلك؛ و لم يستطع أن يدرك أن هجرهم للقرآن هو المسؤول عما هم فيه من ترد.

وبعد فلعلنا استطعنا فيما مضى أن نبين انعكاس التوحيد على المعرفة من أوجه عديدة حيث يحدد التوحيد بمنتهى الدقة مصادر المعرفة، ويوضح منهجها، وينبه إلى النموذج المعرفي الذي تنبثق (المعرفة التوحيدية) عنه، ويشير إلى منحى تصنيف المعرفة حيث يربط التوحيد بين العلم والعمل، وبين العلم والتقوى، وبين العلم والقيم. كذلك أشرنا إلى كيفية حماية (التوحيد) للمنهج العلمي. وبينا كيف حسم التوحيد القضايا المتعلقة بالحقائق الكبرى، مثل حقيقة الخالق والخلق والعالم ليحقق

(الرؤية الكلية) ونبهنا إلى أن التوحيد والمعرفة التوحيدية هما اللذان منحا العمران الإسلامي هويته الإسلامية الخاصة على سائر المستويات بحيث لم يستطع أي عمران آخر أن ينافس العمران الإسلامي فيما حققه في سائر المستويات خاصة الإنسانية منها.

كما أشرنا إلى أن تألق عمراننا ارتبط بمدى انعكاس التوحيد عليه ارتفاعا وانخفاضا. وأن فترات العمران الحقيقي إنما تمت في فترات تمكن التوحيد فيها من القلوب والعقول ونظم الحياة. كما أن فترات التراجع في تاريخ هذه الأمة ارتبطت بفترات خبت فيها أنوار التوحيد فضعفت فيها تجلياته على مختلف جوانب حياة الأمة.

ثم عرجنا على الحضارة المعاصرة واقتبسنا بعض أقوال المؤرخين لها وفلاسفتها وشيئا من تقييماتهم لجوانب معرفية هامة من جوانبها المختلفة، وخوفهم الشديد على مصير هذه الحضارة وبعض أزماتها التي ستكون لها آثار مدمرة على مستوى عالمي. وبينا أن (الرؤية التوحيدية القرآنية) وحدها القادرة على إنقاذها من المصير المفجع الذي ينتظرها وينتظر الإنسانية معها إذا لم تكتشف القرآن المجيد في وقت مناسب يسمح بإنقاذها به، ووضعها على الطريق مرة أخرى.

وجاء الآن دور الحديث على تجليات التوحيد على نظم الحياة على اختلافها:

تجليات التوحيد في النظام السياسي:

قد أوضحنا فيما مر أن التوحيد هو الباني لتصور الإنسان للوجود، والمؤسس لنظرة الإنسان ورؤيته الكلية. والمبين لسائر الحقائق الكبرى التي يتشكل وفقا لها المناخ الفكري لثقافة الأمة. والبيئة الفكرية لبناء الشخصية الإنسانية بشقيها العقلي والنفسي، وذلك يعني أن على سلامة التوحيد تتأسس سلامة الأسس والمنطلقات التي تقوم عليها (علوم الأمة ومعارفها وفنونها) فالسياسة والاقتصاد والاجتماع والحقوق ترتبط كلها ارتباطا وثيقا بالرؤية الكلية للأمة ونظرتها إلى الكون والإنسان والحياة وخالقها كلها، فإذا بدا واضحا انعكاس هذه الرؤية على علوم الأمة التي تقوم نظمها وتستند عليها، فذلك هو الأمر الطبيعي والنتيجة التي لا ينبغي أن تتخلف، وإذا لم يحدث ذلك، فذلك يعني أن هناك خللا أو خطأ ما هو الذي حال دون بروز ذلك الترابط في واقع الحياة.

إن كل الجدل الذي دار تاريخيا حول العلاقة بين (الإيمان والعمل) وأخذ في العصور الأخيرة أشكالا مختلفة، إنما دار ذلك من أجل إقناع المؤمنين أيا كان إيمانهم بعدم ضرورة الربط بين (الإيمان

والعمل). وكذلك محاولات حصر الإيمان بالقناعة العقلية والتصديق القلبي، وأنه لا يزيد ولا ينقص، وجدل الأصوليين حول صدق المشتق على ما منه الاشتقاق، في نحو الظالم والعادل وما يتصل بهذه الأمور كان ولا يزال تعبيرا عن كوامن سياسية كانت تحاول التعبير عن نفسها بأشكال مختلفة، ونحن أحوج ما نكون إلى تجاوز ذلك والتشبث بالتوحيد القرآني.

لقد أسس الأمويون عقيدة الجبر ليعلقوا عليها أخطاءهم وانحرافاتهم السياسية، وأسست بعض فصائل المعارضة السياسية لهم عقيدة نفي القدر، وأولت آيات، ووضعت أحاديث، لينتصر كل فريق لما أسس، وشاعت أحاديث الفرق وفضائل النواحي والبلدان والاتجاهات والشعوب والقبائل والأفراد، وكل ذلك جاء على خلاف مقتضيات التوحيد القرآني، فالتوحيد القرآني يتدخل تدخلا مباشرا بكل ما لـــه صلة بالسلوك السياسي للأفراد وللجماعة؛ بل لا نبالغ لو قلنا: إن العقيدة الدينية أو المشاعر الدينية هي المؤثر الأساس في تحديد خصائص السلوك السياسي، وخاصة في البلدان التي يتمكن الفرد فيها من ممارسة حريته في الاختيار السياسي، ويكفي بالنسبة لنا نحن المسلمين للتدليل على ما تقدم إدراج مباحث (الإمامة) في أصول الدين، حيث تبحث أمور العقيدة.

ولا نعني بضرورة انعكاس التوحيد على النظام السياسي تحويل النظام السياسي إلى جزء من العقيدة أو من الدين بصفة عامة، بل نريد بذلك أن تلتزم الأمة حكاما ومحكومين بالقيم والمقاصد الإسلامية العليا الحاكمة (التوحيد، التزكية، العمران). وسائر مستويات القيم الأخرى المرتبطة بها كالعدل والمساواة والحرية، والوفاء بالعهد الإلهي، والقيام بمهام العبادة، والاستخلاف، وأداء حق الأمانة، والابتلاء، وتحرير العباد من عبادة أهوائهم وشهواتهم ومستذليهم من الطغاة، ومساعدتهم على ممارسة حريتهم في عبادة الله خالقهم ورازقهم وهاديهم، واختيار ما يدينون به. وهذا الذي يحققه التوحيد في قلوب المؤمنين أو ما يسمى بالجماعة السياسية وفي عقولهم وممارساتهم اليومية يتحول إلى رشد جماعي يزكي الأداء الجماعي السياسي ويكرس العلاقات الخيرة بين الجماعة السياسية، ويجعلها قائمة على المودة والتراحم، ورعاية الحقوق وأداء الواجبات؛ ويوحد بين أبناء الجماعة، أو يؤلف بين قلوبها؛ لأن التوحيد يؤدي إلى وحدة الرؤية، ووحدة المشاعر، وبالتالي وحدة المواقف، ووحدة الهدف والغاية وإلى الولاء للمؤمنين، والبراء من أعداء الله وأعدائهم، وهذه هي الدعائم الكبرى التي تقوم على أساس منها أو من بدائل مقاربة أية جماعة سياسية متماسكة.

إن البيعة للخليفة عقد بين الأمة وبينه يقوم على اختيار تام وتشاور، لمعرفة الأصلح والأرشد والأقدر على تحمل المسؤولية وممارسة المهام، والخليفة وأجهزة حكومته مسؤولون أمام الله تعالى ومسؤولون أمام الأمة عن حماية وتحقيق ضرورياتها وحاجياتها وتحسينياتها، وفقا للشريعة التي لا تحابي أحدا، ولا تميز أحدا على أحد.

والإسلام من خلال ترابط منظومة القيم فيه، وشيوع الوعي على تلك القيم بين سائر فصائل الأمة؛ لعدم وجود فاصل بين ما هو ديني ودنيوي يجعل رقابة الأمة رقابة حقيقية، دون حاجة ماسة إلى إيجاد أجهزة للتوعية السياسية، كما أن التوحيد يحرر الجميع من سائر عوامل الخوف، ويجعل إبداء النصيحة عند ظهور أي انحراف واجبا على الجميع لا يسع أحدا السكوت عليه أو اتخاذ موقف سلبي حتى تستقيم الأمور وتعود القيم إلى مواقعها الفاعلة المؤثرة، ويلزم الحاكم بكل ما بايعته الأمة عليه.

ولقائل أن يقول: إذا كان الأمر كذلك فلماذا كانت بلاد المسلمين ميدانا واسعا لتحكم الدكتاتوريين قديما وحديثا؟ ولماذا لم يؤثر إيمانهم وعقيدتهم في نظمهم السياسية؟ ولماذا تكون الشعوب المسلمة أكثر شعوب العالم إنتاجا للنظم الشمولية الظالمة، وأكثر شعوب الأرض تصديرا للاجئين السياسيين؟ ولماذا أغلقت الأرقام القياسية لسجناء الرأي، ومنتهكي حقوق الإنسان، ومصادري الحريات كلها عليهم بحيث لم يعد بعد سقوط الشيوعية بلد واحد ينافس أيا من البلدان المسلمة في ذلك كله؟ في حين نجد بلدانا أخرى علمانية أو لا دينية وقد تكون وثنية تجاوزت هذه الأحوال كلها، واستطاعت أن تحقق أنظمة حرة ولو في حدود ديمقراطية، ولو مع بعض القيود، تحترم الإنسان وحقوقه وكرامته، وتصونها، وتحفظ الحريات للأفراد والجماعات، وتسمح بالمشاركة السياسية؟.

إن بعض الشعوب الإسلامية المقهورة ـــــ وما أكثرها ـــــ تتمنى لو عادت إلى عهود الاستعمار بدلا من الحكومات الوطنية، بما فيها تلك التي لا تفتأ تذكر الناس بدينها وإسلامها والتزامها وربما تمسكها ببعض القوانين والنظم الشرعية. وهذه التساؤلات وجيهة وفي محلها، وعليها إجابات قد تتنوع مصادرها، ولعل منها:

١ ـــــ إدخال مباحث الإمامة باعتبارها قيادة سياسية في دائرة العقيدة، جعل كل خلاف سياسي أو إداري بين الحكام والمحكومين يحال إلى العقيدة أو إلى الفقه، فيجرى تقييمه في الحالة

الأولى بمقاييس الإيمان والكفر والاستقامة والردة، فيحدث الخلاف صدعا لا يمكن إغلاقه أو تلافيه. ويتجاذب الطرفان مفهومي (الحق، الحقيقة) بحيث يقتنع كل منهما بأن موقفه هو الموقف الممثل للحق والحقيقة، والموقف الآخر باطل لا بد من رفضه والوقوف ضده، والحيلولة بينه وبين الظهور، أو القبول لدى الأمة. وإذا أحيل الخلاف إلى الدائرة الفقهية لتحكم فيه فذلك يعني إخضاعه لمقاييس الصواب والخطأ، فأحد الرأيين أو الموقفين صواب والثاني خطأ. وهذا يحدد كذلك المواقف. ويجمدها على المواقف القيمية، وبذلك يصبح كل خلاف في الرأي قابلا لأن يتحول إلى خلاف أيديولوجي بين حق وباطل وصواب وخطأ.

٢ ـــــ إننا ورثة تقاليد ذات حساسيات شديدة لأية مراجعات لآراء أو مذاهب تكلمت بها شخصيات كرست مشروعيتها ومكانتها التاريخية في العقول والقلوب والنفوس، وذلك لخلط سابق تكرس ـــــ أيضا ـــــ بين الرأي وقائله حتى كاد البعض ينظر للرأي كأنه ذات صاحبه، فأي نقد يوجه لرأي قال به أو تبناه أحد قيادات الرأي أو المذاهب يعد بمثابة نقد لصاحب الرأي أو المذهب، فإذا كان النقد عندنا قد أخذ معنى السب والهجو، والآراء قد تشخصت لعوامل تاريخية ومعاصرة فإن ذلك يعيننا على فهم كثير من الأسباب التي تحول بين بعض من لديهم ما يقولون والإمساك عن الإفصاح عنه والتصريح به، كما يفسر لنا وحدة ردود الأفعال التي يستقبل النقد بها. كما أن تقاليد احترام الأكبر في السن أو في المقام تقاليد متأصلة في ثقافتنا صاحبها نوع من الانحراف بمفهوم الاحترام ليضم إلى معانيه قبول الرأي من الأكبر دون مناقشة تذكر، وعدم إظهار المخالفة إلا في أضيق الحدود. في حين كان يجب أن يستقر ويتأصل ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحاول تربية المسلمين عليه من إبداء الرأي والاجتهاد فيه، والتعبير عنه من غير تأثير على الأخوة والمحبة والاحترام، ويكفي في هذا أن نتأمل أوامره صلى الله عليه وآله وسلم بالاجتهاد وأن المجتهد إذا أصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر واحد، وضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم.

٣ ـــــ إننا أمة قد أصلت لفكرة الإجماع واعتبرته دليلا من أهم أدلة الفقه الشرعية، وعرف فكرها ولو في نطاق ضيق ما يسمى بالإجماع السكوتي[1] والمراجعات وإبداء الآراء المغايرة

---

(١) وهو أن يقول عالم أو مفت أو مجتهد قولا على مسمع من الآخرين ولا يرد عليه أحد. راجع (المحصول للفخر الرازي).

نتيجة لمثل هذا البعد الثقافي أصبحت تأخذ شكل الاختلاف والانشقاق، وتهديد الإجماع والوحدة وتفريق كلمة الأمة، ومن يجترئ على المراجعة وهي بهذه المثابة؟!

٤ ــــــ ارتبطت فكرة تقديم الرأي والمراجعة وتبني ما لا يتبناه صاحب السلطة الذي يحتكر حق الكلام باسم الأمة بتكون الفرق ونشوء الطوائف مع أنه كان الأولى أن ترتبط نشأة الفرق بغياب قنوات التعبير، وفقدان سبل مراجعة الآراء دون تحزب حولها أو تعصب لها في داخل الكيان الاجتماعي الموحد، إذ لو وجدت مثل هذه السبل والقنوات لما وجد أصحاب الآراء والمقالات حاجة إلى إيجاد قنوات خاصة بهم من خلال تأسيس حزب أو فرقة أو طائفة منفصلة عن الأمة أو جمهورها.

٥ ــــــ فترات الصراع الطويلة مع الآخر جعلت من وحدة الرأي مطلبا لأصحاب القرار والمسؤولين عن تعبئة الأمة، فصدور أية مراجعات أو آراء مغايرة يحمل ــــــ عندهم ــــــ على أنه تفريق لوحدة الأمة وتهديد لهويتها، ولو أوجدت القنوات الشرعية للاستفادة بالمراجعات والآراء المغايرة لما احتاج أحد إلى تكريس هذا الاتجاه. وعمليات تكريس الاتجاهات الأحادية تؤدي إلى تسويغ الاستبداد ومباركة الفردية.

٦ ــــــ تهميش دور الرأي والعقل، واتهام العقل والتحذير منه، من دون النص أدى إلى تهميش الشورى، والاستهانة بها، وتجاوزها لأدنى سبب، واعتبارها فضلة وتطوعا وتبرعا من الحاكم للأمة، وليست فرضا واجبا شرعيا على الأمة والحاكم منها لا يسع أيا منهما تجاوزه أو تجاهله.

عدم إيجاد مؤسسات تتقاسم الصلاحيات والمسؤوليات، وتحدث فيما بينها التوازن المطلوب والمراقبة المشتركة وتحمي الأمة من السقوط في شرك الفردية، وتغلق بوجه الفردية والدكتاتورية الأبواب.

وهناك أمور أخرى كثيرة يمكن أن تتضافر مع ما ذكرنا في تشكيل الإجابة المطلوبة عن ذلك السؤال الهام، وقد يكون في مقدمة ذلك ــــــ كله ــــــ ذلك الاختلاط والغموض الذي بدا واضحا حول موقف الإسلام من السلطة، وحقيقتها، والدولة وشكلها، وما إذا أراد الإسلام أن يضع أمة ملتزمة بشريعة تختار لنفسها شكل النظام الذي يحفظ للأمة وحدتها في ضوء وهدي قيمها الحاكمة، أو أن لــه رؤية وتدخلا في كل التفاصيل، ومنها شكل الدولة وبعض تفاصيلها وكون الحاكم واحدا من المسلمين ترضى الأمة دينه وأمانته، وكفاءته، وقدرته على القيام بالمسؤوليات

المنوطة به.

كل هذه الأمور قد شاركت بشكل أو بآخر في ذلك الاضطراب المبكر الذي حال دون انعكاس التوحيد وسائر قيم الأمة الحاكمة على نظامها السياسي بشكل دقيق فيجنبها التعرض لما تعرضت لـــه من قلق، واضطراب، واستبداد، وأحكام طوارئ، وكل ذلك لا يمنع أن التوحيد قادر على إعادة الأمور إلى نصابها في سائر بلاد المسلمين حين يتحققون بحقيقته، ويلتزمون به، ويفهمونه حق الفهم ويمارسونه بشكل دقيق، فالتوحيد يقود كل موحد إلى إدراك أن الكون كله ــــــ خلق الله فهو ليس من صنعنا، وما عملته أيدينا، وما نحن إلا بشر ممن خلق؛ فهو خالق الكون وخالقنا، وهو مسخر الكون بمن فيه، وما فيه لنا **{ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة}** (لقمان: ٢٠) وهو سبحانه قد خلقنا وصورنا وأحسن صورنا، وجعلنا درجات في الذكاء والقوة والضعف والعلم والجهل والجد والنشاط والخمول؛ لكي يكون في مقدورنا أن نتعاون من مواقع مختلفة دون أن يضيع أجر من أحسن عملا في موقعه وموضعه أيا كان ذلك الموقع.

والتوحيد الذي يؤكد للبشر باستمرار أنهم مخلوقون، وأن الكون مخلوق مسخر لهم، وأنهم مستخلفون في الأرض ليعمروها، ويقيموا الحق والعدل فيها يشعرهم في الوقت ذاته أن المالك الحقيقي هو الله تعالى، وأن البشر المصطفى للاستخلاف ليس لـــه أن يتجاوز في سائر ممارساته الحدود التي حددها البارئ سبحانه وتعالى، وحين ينعكس التوحيد بظلاله كلها على الممارسة السياسية لا يتوقع إلا أن تكون هذه الممارسة ممارسة عادلة شورية محققة للمقاصد الشرعية، محكومة بالقيم الإسلامية العليا بحيث تسير في العباد سيرة تحفظ عليهم ضرورياتهم وحاجياتهم، وتحسينياتهم، وتحقق لهم حرياتهم، وتقيم العدل فيهم.

الفصل الثاني

الجمع بين القراءتين والمنهج التوحيدي للمعرفة

لقد طورت وتطورت وسائل «الخدمة الاجتماعية» في الغرب تطورا كبيرا، وحاول الغرب من خلال تطوير تلك الوسائل أن يبرز جانبه الحضاري الأفضل، ويقيم الدليل والبرهان على تحضره، وتمدنه، واحترامه للإنسان، وتقديره للحياة، والأحياء. وذلك بشكل لم تعهده البشرية إلا حين كانت تستظل بظلال الإسلام الوارفة الظليلة، ويوم كانت مؤسسات الوقف المختلفة، تقوم بتلك الأدوار المشرقة في خدمة المجتمع الإسلامي؛ مسلمين، وذميين، ووافدين عليه من غير المسلمين من مستأمنين ومعاهدين.

واليوم ـــ بعد أن ضرب التخلف قيم الإسلام، وشاع التراجع عن تلك القيم في بلاد المسلمين، فأصابها القصور المادي والعجز عن الأخذ بأسباب التمدن والشهود الحضاري، فتراجعت تلك الخدمات في مجتمعات المسلمين، واختفت مؤسسات الوقف، لتحصر دورها في خدمة المساجد وحدها، واستبدلت الخدمة الاجتماعية ومؤسساتها بوزارات للشئون الاجتماعية ومؤسسات أخرى موازية، لكنها كلها لم تستطع أن تسد الفراغ الهائل، الذي تركته مؤسسات الأوقاف الإسلامية بعد تأميم وتصفية كثير من تلك المؤسسات وأوقافها.

واليوم يقف المسلمون في «آخر الأمم» المهتمة بالخدمة الاجتماعية، في وقت هم أشد الناس حاجة إلى هذه «الخدمة الاجتماعية»، علما وفنا وممارسات ومؤسسات وقيادات. فخمس وسبعون في المائة من اللاجئين في العالم اليوم مسلمون، وسبعون في المائة من جياع العالم وعراته مسلمون، ولا نريد أن نتحدث عن أعداد ذوي العاهات المختلفة في بلاد المسلمين، بدءا من التخلف العقلي، وانتهاءً بفقدان الأطراف، فتلك أمور يطول شرحها. وكوارث الحروب المحددة، والمجاعات، ومخلفاتها كفيلة بأن تقدم المزيد من الأرقام في كل يوم. ولذلك فإن هذه الأمة أحوج ما تكون ـــ اليوم ـــ إلى الوعي على ذاتها، واليقظة على خواصها، والإثابة الى رشدها.

والمعهد العالمي للفكر الإسلامي مؤسسة خاصة مستقلة، انشئ من قبل نفر من أبناء هذه الأمة المخلصين، الذين لا يزالون يؤمنون برسالة هذه الأمة وعالميتها وخيرية هذه الأمة وإخراجها للناس نموذجا ومثالا، والمعهد يعمل على بناء هذا الوعي مع المؤسسات المهتمة بذلك كالأزهر الشريف، ولذلك تبنى المعهد فكرة «إسلامية المعرفة» وقام لنشر لوائها لتكون وسيلة من وسائل بناء هذا الوعي، وإرساء دعائمه. و«إسلامية المعرفة» في نظر المعهد لا تمثل ضرورة معرفية فحسب؛ بل هي ضرورة حياتية لا يمكن أن يتحقق وعي إسلامي، أو تقوم نهضة إسلامية بدونها، وقبل أن تبدأ بإيتاء ثمارها.

و«إسلامية المعرفة» قائمة على فكرة أساسية خلاصتها: أن «الأمة المسلمة» هي أمة نشأت وتكونت وصارت أمة مخرجة للناس نموذجا، ومثالا، متصفة بالخيرية والوسطية والشهادة على الناس، والمسئولة عن إعمار الكون بـــ «القراءة». فهي إذن «أمة القراءة» لا الجهالة والأمية، بدأ تكوينها بكلمة «اقرأ» لا بكلمة «قاتل، أو افتح، أو ادخل هذه الأرض واخرج من تلك، أو تول قيادة هذا الشعب، لتقاتل به ذاك»؛ بل كانت البداية امراً بالقراءة: **[اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم]** (العلق: ١ ــــ ٥).

ثم يقسم بالقلم، وما يسطر الناس به بعد تلك القراءة: **[ن والقلم وما يسطرون]** (القلم: ١)، ثم يمتن الباري على الإنسان بتعليمه القرآن، وتعليمه البيان: **[الرحمان علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان]** (الرحمن/١ــــ٤).

إن القراءة التي ورد الأمر الإلهي بها قراءة محددة المعالم، واضحة الاتجاه. إن الأمر قد ورد بقراءتين:

القراءة الأولى: قراءة باسم الله تعالى لهذا الوحي النازل، الذي سيتتابع نزوله حتى يتم قرآنا كريما، مجيدا، مكنونا، مفصل الآيات. تتلوه يا محمد على الناس، وتبينه لهم، ليتعلموا منه الحكمة، والهداية، والرشد، فتزكو نفوسهم، وتطهر حياتهم، ويهتدوا به في أداء مهام الاستخلاف، والقيام بواجب الائتمان، وحق العمران. وحين رد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه ليس بقارئ، لاشك أنه فهم المطلوب وهو قراءة ما سيملى عليه، وهو لا يعرف القراءة والكتابة، وليس لــه من العلم ما يقرؤه، ولكن ربط القراءة **[باسم ربك]** نبهه عليه الصلاة والسلام إلى أن ذلك كله سيتم

على عين الله، وبرعايته ومصاحبته. فكأنه كان بمثابة قولــه **[اقرأ]** ولن تكون وحدك في أداء هذا الفعل، الذي لا تعرفه؛ بل سيكون معك ربك، الذي أعطاك الكثير، وهو قادر على أن يعلمك كيفية أداء ما أمرك به، ويزيد على ذلك، كما علم آدم الأسماء كلها، وكما علم إبراهيم وموسى وعيسى وسواهم من النبيين والرسل. فاستعن به في القراءة يعنك، ويصحبك، ويكن معك فيها.

وذكر الرب ـــــ جل شأنه ـــــ ووصفه بالخلق، وذكر خلق الإنسان بالذات، فيه طمأنينة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن منحه القدرة على القراءة ليس بالأمر الصعب على ربه، الذي خلق كل شيء وخلق الإنسان من علم. كما أن في ذكر الخلق تهيئة لبيان النوع الثاني من القراءة، ألا وهي قراءة الخلق ودراسة الوجود، فهما كتابان: كتاب منزل متلو معجز وهو القرآن، وكتاب مخلوق مفتوح، وهو هذا الخلق والجود بدءاً من الإنسان. ولابد من قراءتهما معا لتوجد المعرفة الحضارية الكاملة، التي تمكن الإنسان من القيام بمهام الاستخلاف، وأداء حق الأمانة، والقيام بمقتضيات العمران. وهي معرفة لا تقوم على المتلقي وحده، بل على الأخذ عن الغير كذلك بالمراجعة والمطالعة، وقراءة الكتب، وكتابتها، وتناقل الخبرات والمعارف بين البشر، واستعمال القلم ـــــ الذي علم الله به، وجعله وسيلة للمعرفة، وتبادلها، وإنمائها، وتناقلها، وتعلمها، وتعليمها.

ثم ما يمنّ الله ـــــ تعالى ـــــ به من معارف، تنقدح بها العقول من مستنبطات، ومخترعات، وغير ذلك مما يندرج تحت قول الله تعالى: **[علم الإنسان ما لم يعلم]** فهناك مصدران للمعرفة الإنسانية يتضافران في توصيل الإنسان إلى معارف الشهود الحضاري، والقيام بمهام العمران، والاستخلاف في هذا الوجود ولابد من الجمع بينهما، فيفهم القرآن العظيم، ومدلولاته بالخلق وبالوجود، ويفهم الوجود، ويهتدي به في أداء مهام الخلافة فيه والقيام بمقتضيات الأمانة بالقرآن المجيد وتوجيهاته، وأحكامه، وتعاليمه.

ولابد من قراءة المصدرين معا وتنفيذ الأمر بالقراءتين: قراءة الوحي النازل المتمثل في الكتاب الكريم، المحدد لغاية الحق من الخلق، والمنبه على السنن الحاكمة لهذا الوجود الموضح للمنهج، والشرعة، والحقائق الأساسية. وقراءة كونية شاملة لآثار القدرة الإلهية، وصفاتها، وخلق الإنسان، وسائر السنن والظواهر الكونية، وملاحظة ربوبية الباري جل شأنه، وكرمه البالغ في خلق الإنسان، واستخلافه، وائتمانه على الوجود، وندبه لإعماره وتسخيره.

والقرآن المجيد المكنون بهذه الآيات الكريمات وما يرتبط بها قدم في الماضي أنجح الحلول لأزمة

الإنسان المعرفية في عصر التتريل، تلك الأزمة التي عرفت بالجاهلية، ولا يزال وحده القادر على تقديم مفاتيح الحلول المعرفية لأزمة العالم المعرفية المعاصرة.

فبالجمع بين القراءتين، وإخراج القلم المصنوع الوضعي عن دائرة نزقه، وطغيانه، وربطه بالقراءة الأولى هو ما كتب به **[ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون]** (القلم: ١ـــ ٢)، وتعليم الله تعالى الإنسان القرآن والبيان: **[الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان]** (الرحمن: ١ـــ ٤). وبذلك كله يتجاوز الإنسان الأزمة المعرفية، ويقف على الميزان. وبذلك وضع الميزان، وعهد إليكم: **[ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان]** (الرحمن: ٧ ـــ ٩). فهو الذي **[أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون]** (النحل: ٧٨). فعلمه ـــ وحده تعالى ـــ العلم المحيط الشامل: **[يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم]** (البقرة: ٢٥٥).

فهو سبحانه **[قد أحاط بكل شيء علما]** (الطلاق: ١٢)، أما الناس فأكثرهم لا يعلمون وإذا علموا شيئا فإنهم **[يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون]** (الروم: ٧)، ولذلك فإن أزمة العالم المعرفية اليوم لا مخرج منها إلا منهجية القرآن المعرفية، فلا نبي بعد محمد ولا كتاب بعد القرآن: **[ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا]** (الفرقان: ٥١ـــ٥٢).

فالقراءتان فريضتان، لأنهما أمران إلهيان، والجمع بينهما ضروري، إذ بدونه يقع الخلل، فمن تجاوز القراءة الأولى واستغرق استغراقا كليا في القراءة الثانية ـــ علم الوجود ـــ فقد العلاقة بالله، وتجاهل الغيب، وانطلق بفلسفة وضعية منبتة عوراء قاصرة في مصادرها، تحاول أن توحد بين الإنسان والطبيعة، وتعتبر الخالق والغيب كله مجرد ما ورائيات، إذا كانت قد مارست خلقا أو إيجادا، فقد تكون مارسته بقوة الدفعة الأولى، ثم تناسته أو نسيته ليستمر الكون بعد ذلك فاعلا ومنفعلا بشكل آلي، وحين يحلو لبعض اصحاب هذه الفلسفة أن يتذكروا الباري جل شأنه فإنهم يتذكرونه بشكل حلولي يزعم أن الله تعالى قد حل في قوى الطبيعة ذاتها وذاب فيها ليتحول إلى جزء حال فيها ينتهي بنا إلى المادية الجدلية، التي أنكرت الخالق تماما، وطرحت بدائل لـــه من اتجاهات النمو عبر خصائص التطور المعقد، ليشعر الإنسان باندماجه الكامل بالطبيعة ككائن طبيعي، وهنا

يبدأ الإنسان الشعور بالغنى أو الاستغناء عن خالقه جل شأنه، لأنه لم يعد يرى غير الطبيعة أمامه، فهي كل شيء وهي وراء كل شيء، لا يراها وهي مسخرة مقهورة بسنن الله تعالى، بل يراها كونا مستقلا عن أي امتداد، وآنذاك لا يشعر أن الله تعالى قد سخرها له، وأنه الخالق لـــه ولها، بل يرى أنه نفسه الفاعل المبدع المتعدد القدرات، المسيطر على الطبيعة، المفجر لكوامن ما فيها: فالكون مهيأ مسخر للإنسان، والإنسان مزود بالقدرات التمكينية الذهنية والعلمية التي تمكنه من تسخير الكون وحين يغفل الإنسان أو يعشو عن ذكر الرحمن، ولا يرى القدرة الإلهية في ذلك كله من خلال هداية الوحي يشده الشعور بالاستغناء، والإحساس بالقدرة والإبداع إلى أن يجعل من علاقته بالكون علاقة تسلط وقهر وصراع، وتفقد عناصر الطبيعة علاقتها الودية بالإنسان، وكونه المخلوق المستخلف المؤتمن، وكونها المخلوقة المسخرة لهذا المؤتمن والمستخلف، وكلاهما في المخلوقية والعبودية لله تعالى سواء **[والله خلقكم وما تعملون]** فيتخذ الوجود آنذاك شكل القوى المتصارعة المتنابذة، ويتخذ الإنسان الغافل شكل المتأله المسيطر بالعلم على كل شيء، فيمجد ذاته، ويتخذ إلهه هواه، ويستمد قيمه من الطبيعة، وحتى الأديان تتحول عنده إلى شيء يوظف عندما تدعو الحاجة لسد ثغرة أو تلبية رغبة، أو أداء خدمة. وهنا يحق عليه القول: **[كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى]** (العلق: ٦). فيقع في الاستبداد والطغيان، وتحدث كوارث البيئة، ويظهر التلوث والفساد في البر والبحر والجو بما كسبت أيدي الناس، ويختل التوازن، وتظهر أمراض الانحراف والشذوذ في المعمورة، فقارات يعمها الجوع والخراب وأخرى تعمها الأمراض بكل أشكالها، والجرائم بكل أنواعها وتسود المعيشة الضنك: **[ومن أعرض عن ذكري فإن لـــه معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى]** (طه: ١٢٤).

أما إهمال القراءة الثانية، أي قراءة الوجود والكون والاقتصار على قراءة الوحي وحده منقطعا منبتا عن الوجود، فإنه يؤدي إلى نفور من الدنيا واستقذار لها ولما فيها، يشل طاقات الإنسان العمرانية والحضارية، ويعطله عن أداء مهام الخلافة والأمانة والعمران، ويحول بينه وبين التمتع بنعمة التسخير، ويعطل فكره وينتقص من قيمة فعله، بل قد يلغى فلا يرى الإنسان نفسه فاعلا في شيء، ولا يرى لوجوده في الحياة معنى، وكل هذه الأفكار منافية تماما لمنهج القرآن العظيم.

إن تجاوز القراءة الثانية أو عدم جمعها مع الأولى يؤدي إلى ظهور العجز الإنساني الحضاري وتعطل طاقاته، وإلى خلط عجيب بين قضايا عالم الغيب وعالم الشهادة. وقد يتوهم المقتصرون على

القراءة الأولى أن تتريه الباري جل شأنه لا يتم إلا إذا ألغيت قيمة الفعل الإنساني، ونفيت إرادته واختياره، واستلب استلابا لاهوتيا من دوره.

والناظر في مقالات الإسلاميين وكتب الفرق، يجد في مقالاتهم العجب العجاب في قضايا الخلط بين الفعل الإنساني والفعل الإلهي، والإرادة الإنسانية وقضايا الجبر، والاختيار والعلل والأسباب وسواها.

إذن لابد من الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الوجود، والدمج بينهما لئلا يقع الإنسان في أي ذينك الطرفين الذميمين، ومن هنا كان ما سميناه بـــــ «إسلامية المعرفة» ضرورة معرفية، وضرورة حضارية. لا على المستوى الإسلامي وحده، بل على المستوى العالمي كله للخروج من المأزق المعرفي المعاصر، والأزمة الفكرية العالمية المعاصرة. فبعد تكريس البعد المنهجي في التفكير واجهت الحضارة الغربية نفسهامشكلة تحديد الصياغة المنهجية لحضارتها ومعرفتها صياغة تستند إلى تطور الغرب العلمي بكل جوانبه، لقد كانت الماركسية محاولة لإيجاد هذه الصياغة في إطار المادية الجدلية، وها هي الماركسية تنهار بانهيار الاتحاد السوفيتي قبل أن يجد الغرب البديل المعرفي والمنهجي لها، لتبقى الحضارة الغربية دون صياغة فلسفية بديلة، ودون إجابات عن معظم الأسئلة النهائية المعلقة التي يشيح علماء اليوم بوجوههم عن الإجابة عنها. أما أزمتنا نحن ـــــ العرب والمسلمين ـــــ فهي أشد وأنكى، فنحن شركاء في الأزمة العالمية من ناحية لأن علاقتنا بها وبالغرب لم تعد برائية كما يتوهم البعض، لأن الحضارة الغربية قد نجحت من خلال غزوها الفكري والثقافي والمؤسساتي في أن تفرض علينا وعلى العالم كله منهجها ووعيها العلمي للوجود وللحركة الكونية ورؤيتها للتاريخ والعلم والمعرفة والحضارة والثقافة والتقدم والتخلف وغيرها، فما هي «أسلمة المعرفة» التي نقترحها حلا لأزمتنا المعرفية والفكرية وأزمة العالم معنا؟ وما الأصل فيها؟

إن إسلامية المعرفة نتجت من الجمع بين القراءتين فهي واقعة بين كتابين، تؤسس على تقابلهما وتكاملهما منهجا في البحث والاكتشاف. الكتاب الأول وهو كتاب الوحي المقروء، ونعني به القرآن، والكتاب الثاني هو كتاب الكون المتحرك الذي يتضمن ظواهر الوجود كافة، فالقرآن المجيد العظيم كالكون الواسع العظيم، كلاهما يدل على الآخر ويقود إليه، فالقرآن يقود إلى الكون والكون أيضا يقود إلى القرآن.

وهذا ما أسميناه بالجمع بين قراءتين، قراءة غيبية عبر الوحي في الكون هي تترل من الكلي الإلهي

إلى الجزئي البشري والطبيعي، وبما تتيحه قدراتنا البشرية النسبية على تفهم تنزلات الكلي المطلق، وقراءة الكون هي تطلع من الجزئي من مفردات الكون وأفراد الإنسان باتجاه الكلي وفق قدراتنا النسبية أيضا على فهم الظواهر، فلا يحدث الانفصام المزعوم بين الوحي والمعرفة الموضوعية. هذا ما أكدته بدايات سورة العلق **[اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم]** (العلق: ١ ـــــ ٥).

أما حين يحدث الفصام بين القراءتين ـــــ كما هو حاصل اليوم ـــــ فإن مناهج المعرفة البشرية تصل إلى نتيجتين خطيرتين: فالذين يتعلقون فقط بالجانب الغيبي في القراءة، أي القراءة الأولى ويسقطون الجانب الموضوعي من حسابهم، فيتحولون بالدين إلى لاهوت يستلب الإنسان والكون وينفي الأسباب وقوانين الحركة وصيرورتها وكافة السنن الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية التي يتفاعل معها الإنسان، لينتهي الفكر الإنساني إلى فكر سكوني جامد يحسب خطأ على الدين.

والذين يتعلقون فقط بالجانب الموضوعي في القراءة الثانية، فإنهم ينفون البعد الغيبي الفاعل في الوجود وحركته، فينتهون تدريجيا إلى الفكر الوضعي في المعرفة الذي يؤثر على النسق الحضاري بدوره بذلك التأثير السلبي وذلك هو الوجه السائد للفكر الغربي الآن، والذي بدأت مدارس فكرية غربية كثيرة تحاول الخروج عليه والتنصل منه بعد أن خبرت ويلاته وأدى إلى تقسيم البشرية وتصارع اللاهوت والوضعية، في حين أن الرجوع إلى آيات سورة العلق ينفي اللاهوت عن الغيب حين يربط ما بين هذا الغيب والقراءة الثانية، اي القراءة الموضوعية بالقلم، كما ينفي عن القراءة في الحالتين هوى الإنسان، تبعا لتعلقه بالوحي وفهمه لـــه من ناحية وتبعا لتعلقه وفهمه لظواهر الوجود الكوني وحركته في الوقت ذاته وخلافته.

لهذا نعاني وتعاني البشرية كلها الكثير من جراء الفصام القائم في مناهجنا التربوية ونظمنا التعليمية بين علوم الدين والعلوم الكونية، و لم نتوصل بعد إلى الصيغة التي تؤهل الطالب ليجمع بين العلمين في كل واحد. ومبعث ذلك أننا قد ارتضينا المناهج الغربية في الفصل القائم بين كليات الشريعة وكليات العلوم الحديثة، أو العلوم الاجتماعية فضلا عن التطبيقية.

هذا الفصل الذي يؤدي إلى الفصام يحمل خطورة أخرى، إذ يباعد بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية، حيث طورت المناهج الوضعية علاقتها بهذه العلوم الإنسانية والاجتماعية

وصاغتها وفق القراءة الثانية فقط، واستبعدتها من مجال العلوم الشرعية التي أوغلت بدورها في الفقه ووسائله.

إن النسق الغربي قد انتهى ـــــ كما رأينا ـــــ إلى ثنائية اللاهوت والوضعية، وخطورة هذه الثنائية المتفعلة والمتطرفة أنها قامت على انفصام فدفعت بعض الأنساق الحضارية دفعا نحو الاتجاه الوضعي حين غيبت النظرة الكلية للكون والحياة والإنسان وارتباط قيمه وأخلاقه بالله سبحانه وتعالى، فتضخمت الذاتية البشرية على حساب القيم العقلية والأخلاقية، وما الدين إلا مكارم الأخلاق، فتم تبرير الصراعات القومية والصراعات الاجتماعية كما تم تبرير الفردية الليبرالية إلى حد الاستباحة، فتكرس الصراع بكل مظاهره عوضا عن السلام الذي تعطيه القيم، وما إلى ذلك إلا لأنه وبالقراءة الثانية فقط، رأى الإنسان نفسه مستغنيا حتى عن الذي خلقه، ومن يستغن عن الله ـــــ سبحانه وتعالى ـــــ يطغ في الأرض، ويتطاول بناصيته على كل من يدعوه للقيم والأخلاق، ولهذا تم الربط بين مقدمة سورة العلق الداعية للجمع بين القراءتين وأزمة الطغيان والتطاول الإنساني للنسق الحضارية الوضعية المتعالية بتطورها العلمي التطبيقي المجرد: **[كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى]** (العلق: ٦ ـــــ ٨).

فقضية الجمع بين القراءتين مسألة منهجية في المعرفة وتقود إلى نتيجة حضارية، فالذي يجمع بين القراءتين لا يستغني عن الله لأنه يدرك دوما افتقاره إليه، فلا يستبد ولا يبتغي علوا في الأرض ولا فساداً.

كيفية الجمع بين القراءتين:

لقد زعم البعض أن هذه القضية حلم من الأحلام أو مجرد شعار من الشعارات، ولهؤلاء وسواهم نود أن نوضح أن المدخل الأساسي للجمع بين القراءتين يبدأ باكتشاف العلاقة المنهجية بين القرآن من ناحية والوجود وحركته من ناحية أخرى، فالقرآن وحي إلهي يتعلق به هذا الوجود انطلاقا من أنه مطلق ومحيط وشامل، وبقدر ما تتسع معرفتنا للاثنين معا تتكون لدينا القدرة على الجمع بين القراءتين واكتشاف التداخل المنهجي بين الوحي والكون، فمنهجية القرآن هي منهجية الوجود، والمطلوب ليس قول ذلك نظريا ولكن اكتشاف ذلك تطبيقيا، فالقول النظري لا يتجاوز حالة تبشير بفرضية قد تكون غير صحيحة ويمكن الطعن فيها، ولهذا يكون التحدي الأول والأهم في اكتشاف مدى التداخل المنهجي من خلال الجمع بين القراءتين، بين الوحي الإلهي والعلوم

الطبيعية والإنسانية القائمة على السنن الإلهية في الكون والحياة والإنسان، أما الحديث عن عظمة القرآن فإن القرآن عظيم حقا ومعجز فعلا، وقد كتب الناس عن عظمته وإعجازه آلاف الصفحات، بل ملايينها، لكن تلك الكتابات لم تستطع أن تكشف للناس عن منهجيته المستوعبة للكون وحركته. كما لم تؤد إلى الكشف عن التداخل المنهجي بين قراءة القرآن وقراءة الوجود. فقد بقيت آيات كريمة كثيرة ومقولات الإسقاطات الإسرائيلية واضحة. كذلك بقيت في المعارف الإنسانية والاجتماعية، بل وفي العلوم الطبيعية أبعاد غائبة، وأسئلة كثيرة حيرى لا تجد من مدارس تلك العلوم المختلفة إجابات شافية، لأنها لم تكتشف ذلك التداخل المنهجي بين القراءتين إلا في حدود جزئية تمثلت في محاولات انتقائية يغلب على بعضها التلفيق الذي يجعلها تبدو مفتعلة إلى حد كبير كتلك المحاولات التي تبدو فيما عرف بـــ «الإعجاز العلمي».

فتأكيدنا الدائم على وجوب الجمع بين القراءتين، واعتبار ذلك شرطا مسبقا للخروج من الأزمة الفكرية والمعرفية في مستوياتها العالمية والمحلية يحمل توكيدا على وجوب الالتفات إلى ذلك الارتباط المنهجي بين القرآن والكون والإنسان، ويتخلص الإنسان من مأساة الفصام بين اللاهوت والناسوت أو الوضعية البشرية وما يجره ذلك الفصام لنا من مشكلات.

إن هذه المهمة لا يستطيع النهوض بها إلا من أوتوا القرآن وحظا من العلوم والمعارف كافيا لاكتشاف ذلك التداخل المنهجي بين القرآن والوجود والإنسان ولذلك أرسيت قواعد «أسلمة المعرفة» على ما يلي:

١ـــــ إعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفية القائمة على مقومات وخصائص التصور الإسلامي السليم ليتضح ما يمكن اعتباره النموذج المعرفي الإسلامي القادر على الإجابة عن الأسئلة النهائية، دون تجاوز شيء منها، وبناء قدرة ذاتية على النقد المعرفي الذي يمكن من الاستيعاب والتجاوز بشكل منهجي منضبط، وفي الوقت نفسه يعطي القدرة على التوليد المعرفي المنهجي، والتفسير المعرفي الذي لا يقوم على الإقناع والخطابة، بل على المعرفة المنهجية التامة.

٢ـــــ إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المنهجية الإسلامية على ضوء «المنهجية المعرفية القرآنية» وعلى هدى منها، فإن أضرارا بالغة قد أصابت هذه المنهجية نتيجة القراءات المفردة والتجزيئية التي قرأت القرآن عضين، وقرأت الوجود والإنسان في معزل عنه قديما وحديثا.

٣ـــــ بناء منهج للتعامل مع القرآن المجيد من خلال هذه الرؤية المنهجية وباعتباره مصدرا للمنهج والشرعة والمعرفة ومقومات الشهود الحضاري والعمراني، وقد يقتضي ذلك إعادة بناء

وتركيب علوم القرآن المطلوبة لهذا الغرض، ويتجاوز الكثير من الموروث في هذا المجال. فالإنسان العربي قد فهم القرآن ضمن خصائص تكوين الإنسان العربي للموضوعية التي كانت بطيئة محددة اجتماعيا وفكريا بالقياس إلى خصائص التكوين الحضاري العالمي الراهنة، ففي تلك المرحلة التي تم فيها التدوين الرسمي للعلوم والمعارف النقلية التي دارت حول النص القرآني والحديث النبوي كانت العقلية البلاغية واللغوية، وما توحي به من اتجاه نحو التجزئة وملاحظة المفردات هي السائدة، ولذلك اعتبر الفهم الذي تولد عنها مقبولا وكافيا في تلك المرحلة، أما في المرحلة الراهنة حيث تسيطر عقلية الإدراك المنهجي للأمور، والبحث عن علاقتها الناظمة لها بطرق تحليلية ونقدية توظف الأطراف العلمية المختلفة، وتربطها بموضوعات حضارية متشعبة وعلاقات متنوعة فلابد من إعادة النظر في علوم وسائل فهم النص وخدمته وقراءته قراءة الجمع مع الكون والتداخل المنهجي معه، وتلخيصه من كثير من أنواع التفسير والتأويل، والربط الوثيق بالنسبي من خلال الإسقاطات الإسرائيلية، والربط التام بأسباب النزول، والمناسبات ومشكلات النسخ وتعدد مدارس التفسير.

٤ـــ بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية المطهرة ـــ أيضا ـــ من خلال تلك الرؤية المنهجية وباعتبار السنة النبوية المطهرة كذلك مصدرا لبيان المنهج والشرعة وللمعرفة ومقومات الشهود الحضاري والعمران. فلقد كانت مرحلة النبوة وعصر الصحابة مرحلة تعتمد على الاتصال المباشر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومتابعته والتأسي به فيما يقول أو يفعل: «خذوا عني مناسككم» «صلوا كما رأيتموني أصلي». الاتباع والتأسي يعتمدان على التحرك العلمي في الواقع للرسول عليه الصلاة والسلام. فالرسول ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ كان يجسد بسلوكه القرآن في الواقع فلا تبدو هناك أية مشكلة في التطبيق وتنزيل القرآن على الواقع.

فالتطبيق النبوي والبيان الرسولي كان يضيق الشقة تماما بين مكنونات المنهج الإلهي القرآني وبين الواقع بعقليات أهله وقدراتهم الفكرية والمعرفية وبشروط ذلك الواقع الاجتماعية والفكرية والسقف المعرفي السائد فيه. ولذلك كان الرواة من الصحابة حريصين على ألا تفوتهم أية جزئية تتعلق بحياة الرسول لأن ذلك هو البديل الوحيد عن الوعي بالمنهج الناظم للقضايا المختلفة ولذلك اشتملت السنة على ذلك الكم الهائل من أقوال وأفعال وتقريرات رسول الله ـــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــ وتلقينا كل تلك التفاصيل التي تجعلنا قادرين على أن نتابع حركته اليومية عليه

الصلاة والسلام في غدوه ورواحه وسلمه وحربه وتعليمه وقضائه وقيادته وفتاواه وممارساته الإنسانية بطريقة تكشف عن أسلوبه أو سنته عليه الصلاة والسلام في التعامل مع الواقع وتكشف ــــ إضافة لذلك ــــ عن خصائص الواقع الذي كان رسول الله يتعامل معه ويتحرك فيه، وهو واقع مغاير للواقع الذي نحياه في تركيبته وعقليته.

لقد كان عليه الصلاة والسلام في سنته يمثل تجسيدا للربط بين المنهج القرآني والواقع، ولذلك فإن من الصعب فهم الكثير من القضايا في معزل عن فهم ذلك الواقع الذي كان عليه الصلاة والسلام يتحرك فيه، فحين ينهى عليه الصلاة والسلام عن النحت والتصوير ويعتبر المصورين أشد الناس عذابا يوم القيامة فلا ينبغي أن يفهم نهيه عن ذلك أن لــــه موقفا من الجماليات المجسمة يتعارض مع فهم نبي الله سليمان، الذي كان يجند الجن يصنعون لــــه ما يشاء من تماثيل ولا مع تساؤلات المعاصرين ومجادلاتهم في هذا الموضوع ونحوه بأننا لا نشعر بالرغبة أو الاستعداد في عبادتها، فلماذا تحرم علينا؟ ولا يكون الحل بفتوى جزئية تحل هذا النوع وتمنع ذلك، بل يلاحظ فيها المنهج الذي أشار عليه الصلاة والسلام إليه في مواقف عديدة مثل «لولا قومك حديثو عهد بكفر لفعلت وفعلت»، وتجريد تلك المعاني ونحوها لبناء منهج التأسي بدلا من منهج التقليد.

لقد كان رسول الله ــــ صلى الله عليه وآله وسلم ــــ يعمل على قطع دابر صناعة الأوثان والترويج لها بين قوم حديثي عهد بها، ولابد من الوصول إلى المنهج الناظم الضابط لمثل هذه القضايا وقراءتها قراءة معرفية تخرج الأحاديث والسنن إلى دائرة المنهج بدلا من دائرة الجزئيات المتصارعة التي كثيرا ما يحولها المختلفون إلى أقوال جزئية تدل على الشيء ونقيضه وكأنها اقوال أئمة المذاهب المختلفة. لقد ارتبط العرب في مرحلة نزول القرآن بمفهوم الاتباع والاقتداء واتخذوا من رسول الله ــــ صلى الله عليه وآله وسلم ــــ قدوة عملية جسدت لهم المنهج طبقا لشروطهم الواقعية الحياتية وعبر الاتباع والتأسي نشأت مفاهيم «المأثور والمنقول» وفي محاولة للتخفيف من آثاره لجأ من لجأ إلى التأويل الباطني والتفسير الرمزي والإشاري كمخرج من التقيد بحرفية النص المأثور ولكن ما زاد ذلك الأمر إلا اضطرابا، وكان الواجب هو الوصول إلى المنهج القرآني النبوي لتنضبط على هدى منه سائر التفاصيل والجزئيات ولتفهم في إطاره المقاصد وتتضح الغايات.

ان العقلية المعاصرة عقلية تبحث ــــ باستمرار ــــ عن الناظم الموضوعي للأمور، وتحاول

النفاذ إلى المنهجية الكاملة الأبعاد فضمن هذه المنهجية يصبح التحليل والنقد والتفسير هو الإطار الموضوعي للحركة الفكرية في تعاملها مع القضايا الكونية والمحلية. وبهذه المنهجية يمكن النفاذ إلى مقاصد القرآن المجيد وتفهم السنة النبوية دون الوقوع في أطر ماضوية سكونية أو تأويلات باطنية، أو محاولات تجديدية تحاول إحداث تعديلات أو تأويلات لتطبيقات الماضي لتعيد إنتاجها في الحاضر فكأنها تعبير عن الماضي في ثوب جديد لا يمكن ارتداؤه على أية حال.

٥ـــــ إعادة دراسة وفهم تراثنا الإسلامي وقراءته قراءة نقدية تحليلية معرفية تخرجنا من الدوائر الثلاث التي تحكم أساليب تعاملنا مع تراثنا ـــــ في الوقت الحاضر ـــــ دائرة الرفض المطلق ودائرة القبول المطلق ودائرة التلفيق والانتقاء العشوائي، فهذه الدوائر الثلاث لا يمكن أن تحقق التواصل مع ما يجب التواصل معه من هذا التراث، كما لا يمكن أن تحقق القطيعة مع ما يجب إحداث القطيعة معه من ذلك التراث.

٦ـــــ بناء منهج التعامل مع التراث الإنساني المعاصر ـــــ أيضا ـــــ يخرج تعامل العقل المسلم معه من أساليب التعامل الحالية التي تخلفت عن أطراف ومحاولات المقاربات ثم المقارنات لتنتهي بالرفض المطلق، أو القبول المطلق بروح مستلبة تماما أو ميالة للانتقاء العشوائي.

فهذه الخطوات أو المهام الست هي التي أطلقنا عليها «أسلمة المعرفة» أو المنهج التوحيدي للمعرفة أو أسلمة العلوم الاجتماعية والإنسانية وتوجيه العلوم الطبيعية وجهة إسلامية أو التأصيل الإسلامي للعلوم، فنحن لأول مرة نجد أنفسنا أمام وضعية عالمية تعمل على توظيف المعارف والعلوم واكتشافات العلوم ومنجزاتها.

الفصل الثالث

انسان التزكية
الهدف الاقصى للاسلام

من المعروف لدى المهتمين بالدراسات الإنسانية أن «الشخصية الإنسانية» قوامها قاعدتان أساسيتان:

أولاهما: العقلية الإنسانية فهي شطر الشخصية الذي لا قوام لها بدونه، وهي قاعدتها الأولى.

وثانيتهما: النفسية الإنسانية وهي الشطر الأساسي الآخر. وتفقد الشخصية الإنسانية كينونتها، وهويتها، إذا اهتز أحد الجانبين، أو خرج عن طبيعته التي حددها الباري العظيم له، أو لم ينل نصيبه من تعليم الكتاب والحكمة والتزكية.

وقوام «العقلية» العلوم والتجارب والمعارف والخبرات، وقوام «النفسية» الفنون والآداب بأنواعها الهادفة.

وأمة لا علوم لها ولا معارف، ولا خبرات ولا تجارب كونتها في دائرة هذه العلوم، تنفيذاً لها، واختباراً لصحتها ودقتها، لا يمكن أن تبني حضارة، ولا أن تقيم عمراناً. وكيف يتحقق شيء من ذلك بشخصية لا قوام لها؟!

وأمة لا فنون رشيدة تهذب سلوكها، ولا آداب حكيمة تقيم نفسيتها، لا يمكن أن تحقق ثقافة ولا أن تقيم عمراناً. وأنى لها أن تفعل وقد فقدت نفسيتها وانهار بنيانها؟ لذلك فإن قيم الإسلام الحاكمة، ومقاصده العليا: التوحيد وما ينبثق عنه، والعمران وما يتفرع عنه لا يقوم أي منها بدون عقلية قويمة ونفسية مستقيمة. وما أسمته الفلسفة بقيم الحق وقيم الخير وقيم الجمال كل أولئك لا يمكن أن يتحقق شيء منه في واقع الحياة بدون وجود إنسان التزكية، وبناء الشخصية المزكاة عقليّاً ونفسيّاً، وإلا فلن يوجد الإنسان المعمر البنّاء المجاهد الذي يهوى التضحية، ولا العالم الذي يعشق العلم والمعرفة، ولا الناسك الذي يستمسك بالتقوى ويتزين بها، ولا الفنان الذي يملأ الدنيا فنا وثقافة، فيوحي للناس بلون الحياة التي لابد أن يحيوها، ويهذب مشاعرهم ويرقي نفوسهم ليتعلموا كيف يحيون حياة الخليفة في الكون فيحبون ما فيه، ويعشقون عمارته، ويكرهون الإفساد فيه،

ويقاومون محاولات التخريب التي قد يمارسها المفسدون.

إن إنسان التزكية قد يضحي بحياته، وقد يفارقها شهيدا، وهو يحاول أن يحفظ للحياة قيمتها، وللعمران مقوماته الحقيقية ولو بالتعالي على الدنيا وأهوائها.

إن «الإيمان» ذاته لا يأتي به العلم ـــــ وحده ـــــ ولا المعرفة المفردة، بل لابد فيه من بذرة حب لله ورسوله ـــــ صلى الله عليه وآله وسلم ـــــ تحققها التربية السليمة فتحول ناتج العلم والمعرفة إلى إيمان. إنك لا تستطيع أن تولد من الأوكسجين والهيدروجين وحدهما ماءا، وإذا ولّدت قطرات فلن تولّد بحارا ولا أنهارا ولا محيطات أو بحيرات، لأن هناك عنصرا آخر يرتبط بعالم الأمر الإلهي ليجعل من العنصرين ماء لا تستطيع إيجاده، وكذلك العلم وحده، والمعرفة وحدها لا يوجد أي منهما ولا يوجدان مجتمعين «إيمانا كاملا ويقينا صادقا»، بل لابد من تضافر عناصر أخرى معهما تبني النفس وتحرك جوانبها المختلفة بمحركات إدراك الجلال والجمال والإعجاب بصنع الخالق وحسن تدبيره وجزيل إنعامه فيبدأ الارتباط والتفاعل في داخل الشخصية الإنسانية لتتجه نحو الإيمان بالله ـــــ تعالى ـــــ لذلك فإن العلم والمعرفة تخاطبان «قوى العقل الثلاثة» وتعملان على تهيئتها لاستقبال المدركات، وفي الوقت ذاته تعمل الفنون والآداب ومقومات الثقافة على تحريك الوجدان، وتشكيل الدواعي وبناء الضمير ليلتقي الفريقان بعد ذلك في شخصية متوازنة دقيقة، منضبطة تتمتع بالفاعلية، والدافعيّة العمرانية للقيام بمهام الاستخلاف، وأداء الأمانة. ولا يتم ذلك بدون التربية الهادفة التي تحول ذلك الى سلوك وممارسة.

إن الحضارة المعاصرة ـــــ على كل ما أسدته للإنسان من خدمات في عمليات الكشف والتسخير، وعلى كل ما أنتجته من علوم ومعارف وآداب وفنون ـــــ بقطع النظر عن طبيعتها ـــــ لم تستطع أن تقدم «أطراً ووسائل تربوية إنسانية هادفة» يمكن أن نجد فيها ما يساعد الإنسان على تقويم نفسه وتهذيب سلوكه وتربية ذاته.

لقد كان الدين المسيحي في العصر الأوروبي الوسيط مصدر المعرفة ومصدر الفن كذلك في أوروبا. أما في عصر النهضة الأوروبية فقد صار العقل مصدر المعرفة والفن. أما بعد ذلك فقد ساد الحس وصار مصدرا للمعارف وللفنون كذلك، وتجاوز الحس بذلك الدين والعقل، وصار الحس سيد كل شيء فحصر العلم في زوايا المختبرات وحقول التجارب، وأخرج من دائرته كل ما لا يخضع لسلطانه، وحصر الفن في دوائر أضيق من ذلك فبدأت تتلاشى وتهبط ويضيّق عليها الخناق.

وأما التربية فصارت غايتها ومثلها الأعلى القدرات الإنتاجية فقط لا غير. يزود بها الإنسان ليسابق بها الآلة التي كثيراً ما تتفوق عليه وتتجاوزه، وقد تسحقه أو ترمي به إلى زوايا البطالة والتعطل. فليس غريبا ــــ بعد ذلك ــــ أن يجد الإنسان نفسه وقد ملأها الخوف من الكون وهو بيته، والطبيعة وهي أمّه، والإنسان وهو أخوه، والغيب هو عونه ورائده إلى مستقبله، فيبهر من خوفه المتراكب إلى تغييب عقله في السكر والمخدرات، وهدم ذاته في الجنس والانحرافات وقد ينصرف إلى تدين شائه ناقص أو قاصر أو منحرف لا يختلف في إضراره بالإنسان والحياة عن تلك الوسائل المدمرة. وهنا قد تصبح الجريمة نوعا من التغيير، بل والمتعة المطلوبة والعياذ بالله. وأحيانا يصبح الانتحار وإنهاء الحياة جماعيا تجربة من التجارب، أو فرديا للتخلص من مرارتها أو آلامها أو تفاهتها، أو أعبائها.

أما الإسلام فإنه منذ البداية أعلن عن مقاصده التربوية وأهدافه في التربية، وغاياته وقيمه الحاكمة. ووضع ذلك كله في مراتب يأخذ بعضها في عضد بعض حتى تبلغ تلك الغاية الأسمى ألا وهي سعادة الإنسان في الدارين بشروطها وأركانها وضوابطها.

فأعلى المقاصد الشرعية، وأسمى القيم الحاكمة ثلاثة هي: التوحيد، التزكية، والعمران.

وسائر القيم الأخرى الكلية منها والجزئية تنتهي إلى هذه القيم الثلاث التي لا يمكن أن ينفصل أي منها عن الآخرين: فالتوحيد غاية التزكية وهدفها، ووسيلتها في الوقت ذاته. والعمران ثمرة للتوحيد والتزكية معا لا يوجد على حقيقته، وبشروطه، بدونهما.

إن «التوحيد» يمثل محور العقيدة وأساسها، وهو عنوان تتدرج تحته سائر عناصرها ومكوناتها من الإيمان بالمبدأ والمعاد والرسل ووحدة الغاية والمصير. وعقيدة التوحيد تبين للإنسان أن الوجود لـــه طرفان: خالق متعال هو الله تعالى. وكل ما سواه من الموجودات سواء الإنسان أو الكون هو مخلوق. والوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الدائم. والوجود الكوني والإنساني وجود غير قائم بنفسه، ولا معتمد على ذاته، فهو أثر من آثار الوجود الإلهي، ومظهر من مظاهر القدرة الإلهية فهو وجود ناقص. والإنسان والكون كلاهما عنصر من عناصر «العالم» المخلوق لله ــــ تعالى ــــ والسنن والقوانين الإلهية الثابتة تجري عليهما معا: **[إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر]** (القمر: ٤٩).

ومع هذا الاتفاق التام بين الإنسان والكون، ومع بداهة كون الإنسان ــــ كله وكما هو ــــ مولوداً طبيعيا للكون، وناقش الفلاسفة المسلمون أمرا دقيقا لم يلتفت إليه إلا بعد تطور

«فلسفة العلوم الطبيعية» ألا وهو قضية «الخلق والتشيؤ» أو «المخلوقية والشيئية» بين الإنسان والطبيعة، فطرحوا سؤالا حول تسمية المعدوم «شيئاً» جر إلى الكلام على مفهوم «الشيء» و«الشيئية»، وما إذا كان يصح إطلاق الشيء على الخالق تبارك وتعالى، أو هي قاصرة على المخلوق وهل الإنسان بجملته يمكن أن يصدق عليه أنه شيء؟ ويمكن الاطلاع على بعض ما دار في هذا الشأن في كتاب الفخر الرازي محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، وبذيله تلخيص المحصل للطوسي ص ٩ وما بعدها. وكذلك معالم أصول الدين في الباب الثاني في «أحكام المعلومات» وخاصة المسألة الأولى منه. وقد تعرض الإمام الرازي لذلك ـــــ أيضا ـــــ في كتابه المباحث المشرقية وفي مواضع من الأربعين وغيرها. ومهما يكن من أمر فإن القرآن المجيد قد أوضح الصلة العضوية بين الإنسان والكون، وبيّن أن الإنسان من هذه الأرض **[منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى]** (طه: ٥٥). وهذا الذي قرره القرآن الكريم ـــــ هو نفس ما توصلت إليه البشرية بعد سائر الأطوار التي مرت بها «فلسفة العلوم الطبيعية» لتقرر أخيرا: أن الإنسان بكل تفاصيله بدنا ونفسا جسما، وعقلا وحواس إنما هو ابن طبيعي للكون، يمكن أن تنسحب عليه وعلى سائر قوى وعيه وإدراكه وسلوكياته النفسية والاجتماعية نفس سنن وقوانين الطبيعة. ولكن القرآن الكريم حينما قرر ذلك ربط هذه الصلة بين الإنسان والكون بمفهوم «الخلق» **[يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك]** (الإنفطار: ٦ـــــ ٨)، **[فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب]** (الطارق: ٥ـــــ ٧) **[خلق الإنسان من علق]** (العلق: ٢)، **[أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى]** (القيامة: ٣٦ـــــ٣٨)، **[ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون]** (المرسلات: ٢٠ـــــ ٢٣).

وقد يتضح الفرق بشكل أكبر في تدبر آيات سورة «عبس»: **[قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره كلا لما يقض ما أمره]** (عبس: ١٧ـــــ ٢٣) هذا عن الإنسان نفسه، أما عن احتياجاته ومتاعه فيقول: **[فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم]** (عبس: ٢٤ـــــ ٣٢).

«فالخلق الإلهي» فيه ما يتجاوز الطبيعة وقدراتها وسننها وقوانينها، و«التشييء» وهو إلهي كذلك لكنه ينتهي بما قد يوهم الإنسان الغافل أن الطبيعة ذاتها وفي إطار قدراتها، وفي دائرة قوانينها توجد الأشياء «فالخلق والتشيؤ» مفهومان يلتقيان ويفترقان. يلتقيان في أنهما ــــ معا ــــ ينتهيان بالإيجاد وفق السنن والقوانين الكونية وفي مقدمتها «السببية الجامدة» التي تتحكم في التحولات الإيحائية والفيزيائية. لكن «التشيؤ» كناتج يعتمد على المركبات التي يتكون الشيء المطلوب منها. ويفترض أن تكون العلاقة بين الشيء والمركب الذي أنتج عنه علاقة سببية جامدة تجعل وجود الناتج عن ذلك المركب أمرا محتما ولا يحتاج إلى تدخل أي عنصر خارجي «حسب قوانين فلسفة العلوم الطبيعية».

أما «الخلق» فهو مفهوم قرآني يستوعب «التشيؤ» ثم يتجاوزه ليدرج تحته صورا أخرى يضيق «التشيؤ» عنها مثل الصور التي تتحد فيها المركبات الطبيعية فيفترض «بحسب قوانين وفلسفة العلوم الطبيعية» أن يتحد الناتج، والصور التي تختلف فيها العناصر الطبيعية المتفاعلة فيفترض «بحسب قوانين وفلسفة العلوم الطبيعية» أن يختلف الناتج، فهذه الصور ونحوها هي التي اعتبرت جزءا من «فلسفة العلوم الطبيعية» و«المنهج العلمي»، وقادت إلى الكلام عن «السببية السائلة» و«النسبية والاحتمالية» ونحوها، وكل ذلك لن يقدم تفسيرا وقد يؤدي إلى انهيار العلم وسلطانه ومنهجه. لكن المخرج للعالم من هذه الأزمة لن يكون إلا بإدراك الفرق بين «الخلق والتشيؤ والجعل»، وتحويل تلك الفروق أعني اتحاد الناتج مع اختلاف مصادر التركيب وعناصره، أو اختلاف الناتج مع اتحاد عناصر التركيب «دليل الخلق» على وجود »الخالق» قال تعالى: **[وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون]** (فاطر: ١٢). وقال جل شأنه: **[وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون]** (الرعد: ٤). فقوانين الشيئية والتشيؤ الطبيعي وإن كانت مرتبطة بالمشيئة الإلهية ومشتقة منها غير أن المشيئة الإلهية ذاتها وضعتها في دائرة السننيّة الثابتة بحيث لا تحتمل قبول فكرة وحدة أصول تكوينية تتفاعل وفقا لقوانين التشيؤ ثم تختلف نتائجها وتتنوع، ففي سورة الرعد نجد العناصر المتفاعلة «وحدة الماء والتراب» لكن الناتج لامتناهي من الحبوب والفواكه والثمار والبقول

والزهور وسواها. وفي آية سورة فاطر نجد مصادر تكوينية مختلفة أنهارا ذات ماء عذب فرات، وبحارا ذات ماء ملح أجاج، ومع ذلك فالناتج اتحد في «لحم طري» وحلية، فقوة الخلق والتخليق تشيؤ وزيادة، ومبدأ «الخلق» هو الذي يصلح تفسيرا لانبثاق مظاهر الحياة ــــ كلها ــــ على تعددها وتنوعها واختلافها من عنصر واحد هو الماء. أما قوانين التشيؤ فهي قاصرة عن تقديم هذا التفسير. وكذلك حين نحاول تفسير تولد الحي من الميت وتولد الميت من الحي فإن قوانين التشيؤ تعجز عن تقديم ذلك التفسير خلافا لمبدأ «الخلق» فتبارك الله أحسن الخالقين.

يقول الأخ الباحث الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد: «... إننا نستطيع أن نسلم بعدم الفصل بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية حيث تتحد قواعد المعرفة التطبيقية بين الخلق والتشيؤ في الفعل الكوني، ولكنهما يفترقان في النهايات المنهجية...»[1]

فالإنسان والكون ــــ معا ــــ يتحدان في صدورهما عن إرادة إله واحد، ويتحدان في كونهما مربوبين ومدبرين بتدبير رب واحد **[وخلق كل شيء فقدره تقديرا]** (الفرقان: ٢)، كما يتحدان في المبدأ والمآل وفي كثير من القوانين والسنن الحاكمة لكليهما، لكن للإنسان على الكون درجة هي درجة التكريم الإلهي: **[ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا]** (الإسراء: ٧٠). ودرجة التكريم هذه أهلت الإنسان للاستخلاف والائتمان والابتلاء، والعهد، كما أهلته لأن يكون الكون مسخراً له. وهذه الدرجة هي التي جعلت من خلق الإنسان حدثا عظيما لم يشبه أي خلق آخر في أهميته بما في ذلك خلق ما هو أكبر منه: **[لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون]** (غافر: ٥٧). ومع ذلك فلم يحتف أو يحتفل بخلقها كما احتفى بإتمام خلق الإنسان، فهو الكائن الوحيد الذي في موكب التسبيح لله تعالى جعله أهلا لأن يقع لــه الملائكة ساجدين: **[وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا لــه ساجدين]** (الحجر: ٢٨ ــــ ٢٩).

فالإنسان قد صار بهذه الدرجة قطب الكون ومركز الدائرة فيه، لُعِنَ إبليس وطُردَ من رحمته ــــ تعالى ــــ بالتكبر عليه، ورضي الله عن ملائكته وأثنى عليهم لطاعتهم الله بالسجود إلى هذا

---

(١) منهجية القرآن المعرفية ص ٨١ .

الخلق المكرم من خلقه. وهيأ الله ـــ تعالى ـــ تعالى لهذا الإنسان من قوى الوعي والإدراك ما يمكنه من أن يستوعب العالم الأكبر:

أتعلم أنك جسم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وليمكن الله ـــ تعالى ـــ للإنسان في الكون، ويعينه على الأخذ بناصيته سخّر لـه الكون بقوانين التشيؤ وسنن التكوين التي لا تتغير **[ولن تجد لسنة الله تبديلا]** (الفتح : ٢٣)، فمكّن بذلك الإنسان أن يرصد تلك الظواهر الكونية فيكشف عن القوانين والسنن الكامنة وراءها ويطلع على الحقائق العلمية التي تساعده على أداء مهامه وتمكنه من التسخير.

ومن هنا كان الكون في حاجة إلى التسخير بالقوانين والسنن. وكان الإنسان في حاجة إلى التربية والتعليم والتوجيه، فعلمه جل شأنه الأسماء كلها **[وعلم آدم الأسماء كلها...]** (البقرة: ٣١). إن القرآن المجيد قد عنى عناية خاصة ببناء ما يمكن تسميته بمنهج تربوي كامل تأخذ كل حلقة فيه بعضد الأخرى حتى يبلغ الغاية ويصل إلى المنتهى في بناء عقلية الإنسان وشخصيته فهناك المقاصد الشرعية العليا التي سبق ذكرها تمثل قيما حاكمة ـــ في الوقت ذاته، وهي التوحيد، التزكية، العمران. وهذه المقاصد مترابطة ـــ كما أوضحنا ـــ لا ينفك أي منها عن الآخرين وهي توضح أن أهم أهداف الإسلام تحقيق وإيجاد «إنسان التزكية» القادر على تحقيق التوحيد، وإقامة العمران. والتزكية لا تتحقق بدون التوحيد، ولا تبرز ولا تظهر، ولا يبدو أثر التوحيد بدون فعل عمراني ينبه إلى الأبعاد الفكرية والعقدية والنفسية والعقلية للإنسان الذي قام به، ولذلك حددت مهمة النبي عليه الصلاة والسلام بدعوة إبراهيم: **[ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم]** (البقرة: ١٢٩)، فمنهج التربية القرآني بدأ ببناء دعائم التعامل الإنساني مع الوجود الغيبي، والبيئة الكونية ومع بيئته الإنسانية الاجتماعية في إطار تلك المقاصد العليا حيث إن كتاب الله ـــ تعالى ـــ كتاب استخلاف هادف جاءت آياته كلها في نظام دقيق لابد أن ينتهي في حالة الوعي عليه والالتزام به إلى تحقيق هذه المقاصد العليا، وإعادة إنسان التزكية عقليا ونفسيا وجسميا.

المحتويات

الفصل الاول
التوحيد والتزكية والعمران

تجليات التوحيد

الفصل الثاني

الجمع بين القراءتين والمنهج التوحيدي للمعرفية

الفصل الثالث